الشّيخ والجَراد

الشّيخ والجَراد

قِصَص

بِقلم

أَحْمد القَاسِمي

عنوان الكتاب: الشيخ والجراد
المؤلف: أحمد القاسمي
الهاتف: 212661707826+
البريد الإلكتروني : elkacimiahmed63@gmail.com
رسم وخطوط الغلاف: ولاء خليفة (جمهورية مصر العربية).
رقم الإيداع القانوني (Dépôt Légal): 2024MO5290
الرقم الدولي المعياري للكتب (ISBN): 978-9920-29-040-1
طبع: مطبعة البصيرة، 1 بلوك L، حي يعقوب المنصور، الرباط، الهاتف: 0537230106، البريد الإلكتروني: impalbassira@gmail.com

الطبعة الأولى : 1446 هـ: الموافق 2024 م.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

مُقَدِّمَة

في الكِتابة سكينة وطمأنينة، وتأمّل في مُتغيرات الحاضر، واسترجاع الماضي البعيد والقريب، وخوف من مستقبل غالبا ما تخطئه الإسقاطات، على إيقاع دقات الساعة، أو وطء أقدام، أو هدير مركبة، أو حفيف أجنحة سرب من الطيور، أو تصايح أطفال يلعبون الكرة، أو دوي أمواج يصدر من شاطئ بعيد.

وفي القراءة نعيد قراءة أنفسنا، ونبحث لشخوصنا عن أمكنة تُلائمها، ومواطئ أقدام صلبة؛ لتنطلق بظمأ لا يُطفئ غليله شيء؛ سوى تحقيق النجاح المادي الباهر.

فلماذا لا نقرأ، ونحن ننتدب أنفسنا بأننا أمة القراءة، ومن حضارة الكتاب؟

لم تسكتشف بعد فئة من الناس فوائد القراءة، لأنها في غفلة عن ذلك، والقليل من يتغافل. أكون قد قرأت كتابا باسترخاء في المساء، فأصحو في الغد، وقد تزودت بالكثير؛ فهمت أشياء، وسائر في دربي بثقة لتحقيق أشياء كثيرة؛ فالذي يقطع الممرات بلا هوادة؛ غير مستقر على أمر بعينه؛ لا يقرأ، ولم يفهم كنه الأشياء المحيطة به، وما تستدعيه من أعمال تُنتج، ولا تذهب هدرا.

لماذا القصة، وهذه القصص؟

لأنني أكون سعيدا سعادة كائن انتقل من كدِّ حياة الاسترزاق؛ إلى مكان تسوده طبيعة متنوعة الأحياء، ومتباينة الألوان والأشكال؛ وجميع هذا في تناغم نظام بيئي يمضي عبر الزمن بترو، دون جلبة ولا ضوضاء؛ إذا قرأت قصة، واختزنت أحداثها، وشخصياتها، وأمكنتها في ذاكرتي، أستحضرها متى أشاء؛ ومن حين لآخر، وهي بذلك لها مفعول وصفة مخبرية؛ سيكون

لها تأثير حتما؛ هذا، وإذا كانت قراءاتي تتنوع بتنوع كُتاب، وأدباء وعلماء ينتمون لشعوب، وقبائل أخرى.

وأكون كذلك؛ أي مُوفق؛ إذا انتحيت ركنا قصيا، وأمسكت بالقلم، وتلك الأصوات التي عددتها سابقا تتناهى إلى مسمعي، وكتبت جملا وفقرات؛ ثم شطبت على ما كتبت؛ لأنه لم تُصَغ بعدُ الفكرة صياغة تامة، ولم أجد لها ما يُناسبها من ألفاظ، وكلمات صور؛ أنقلها من الخيال، ومن الذهن؛ إلى حبر على الورق، أو إلى أزرار حاسوب؛ لتنطبع على الشاشة حروفا، فأراجع ما كتبت راضي النفس أو متبرِّما؛ إنها محنة الكتابة، وأمضي، وقد أنتجت نصا ينتظر من يقرأه، ليُبدي رأيه فيه، ويُعقب عليه، وهو بذلك يعبر عن وجوده.

في هذه القصص شخصيات، وأمكنة، وأزمنة، وأحداث، فيها سرد لرحلة صيد بحرية لاصطياد سمكة هي وجبة عَشاء، أو غَذاء؛ لبطون تتضور جوعا؛ تنتهي بالغرق؛ فالقضاء، ولأيام هجوم الجراد الماضية؛ وإن كان؛ أي الجراد؛ لا يترك للإنسان ما يقتات به من الزرع والضرع أحيانا، فهو يكون قادما؛ لا يزور إلا في بداية الصيف، فصل الثمار والخصب، يحلق مع الهواء الساخن المتراقص في الأجواء، وفي ذلك احتفال، وسمر ليالي الحر والقيض، تحنُّ له الأفئدة في فصل الشتاء. كما في هذه القصص فرحة اكتشاف الطاقات المتجددة، وتسخيراتها فيما يُذهل؛ من تكنولوجية دقيقة؛ جد متطورة، ما يزال نصيبها من التنفيذ إلا في الخيال العلمي، فالسرطان الآلي يدبُّ ببقية طاقة حرارية مصدرها مياه البحر.

فإلى القارئ هذه المجموعة من القصص؛ أتركه يرحل سارحا فيها، تذهب به مذاهب، وتسلك به مسالك؛ في أفضية خالية، وأمكنة معمورة.

أحمد القاسمي،

تمارة: في خريف عام 1446 هـ، الموافق 2024 م.

الشَّيْخ و الْجراد

لا تُدْحَضُ للشيخ حُجّة؛ فهو يُنازل العجز، ويُقاوم الوهن، ويُحارب النسيان.

كان قائدا، وهصُورا، وجَلْدا في معسكره. غضب للهزيمة؛ فأنكر شهامة قائد معسكر الفتيان.

هل للفتى الغِرّ نصر؟

الويل لمن ينازعه الخُطط؛ ممن حوله؛ فهو قد خبر الحرب.

قال له ابنه الفتى:

– هذا يا أبتي بساطك من الدَّوم تحت ظل الشجرة، يكفي أن ترتاح، وتراقب عن قرب ما يجري في الحقل.

ارتدت نظرات الابن الفتى؛ عينا أبيه جمرتان ملتهبتان، أفرزتا لمعان الشرر؛ اِرتعشت شفتاه الغليظتان، وتصلبت وجنتاه الضامرتان؛ إنه عَمَى الغَضب، فمال الخلف بأديمه جانبا في تقهقر.

يأبى الشيخ الذي عمر طويلا أن يفقد ولاية أمر القبيلة؛ لا يكاد يُذعن إلا لحرمه العجوز؛ ففي صلصال حاشية فوهة البئر؛ حزوز حبل الدلو، بدل أن يحز الحجرُ قُنّب الحبل؛ يحز هذا الأخير الحجر؛ كذلك الشيخ، وقرينته العجوز.

الشيخ حازم، قبض بيديه ثوب الجلباب ورفعه؛ ثم شدّه إلى وسطه بحبل من القُنّب؛ فتهدلت جوانبه. كانت العِمامة البيضاء قد أربكتها ثائرته؛ فأعاد لفها على هامته المندحرة؛ أليست هي دليل كبير قوم، والأنفة والشموخ؟

ذو أَرْيَحِيَّة تجذب إليه حفيده الصغير؛ سخاؤه؛ حين يُرَبّت باليد النحيلة يسري الدفء؛ قبلته المرتعشة، والمندفعة على الجبين؛ ضحْكتُه المكتومة.

عند تثاؤبه يبدو طاقم اصطناعي من أسنان نضيدة البياض؛ أنفاسه ممزوجة بمسك أثوابه؛ علامة الوضوء والصلاة بادية على وجهه.

تسافر حكاياته مع نسيم الليل في سكون البادية، وتحلق مجَلَّلة بنجوم ساطعة في السماء؛ تبدو من خلال كُوَّة البيت؛ إحداها حكاية الجراد؛ ذكرى تصحو على إثرها أحاسيس، يُثيرها في نَفْس الشيخ حدث زحف الجراد على سنابل الحقول، يُؤججها حماسا واندفاعا؛ وتفتُّق قوة فتوة؛ كانت قد أينعت على التو، فتنبسط أسارير الشيخ، ويحن قلبه إلى ذلك الزمان؛ فتدمع عيناه.

آذان الحفيد تلتقط تفاصيل الحكاية بنهم، ويستوقف جده عند كلمات مثيرة: تحميص؛ جراد؛ النار.

فلم يكن بدا من أن يستطرد الشيخ؛ قائلا:

– نعم؛ كنا نُحمِّص الجراد على النار، ونأكله؛ كنا نستسيغه مُتلذذين.

الحصان الذي كان يركبه؛ يعكس غِشاؤُه أشعة الشمس، فيَغْشى البصر؛ هكذا كان يقول؛ فلا يكاد ينطق بهذا؛ حتى يتفوه من يخاطبه؛ ببقية الجملة؛ التي كثيرا ما رددها على مسامعه، وهي: «الجواد يرْكُض، فلا أكاد أستقر على السِّرج، ووقع الحوافر يُلفت انتباه الأسماع، وصيحات استنفاري ترتج لها الأجساد، ويدي تلوح إلى الجنوب القاحل؛ الجراد..الجراد...! فيهب الرجال والنساء والفتيان إلى إبادة الجراد، ولا تُخالجهم ريبة في كلامي، كنت أدراهم بخبايا الأمور، ولرأيي تقدير؛ ما وزنه ذَهب».

لا يلتفت الشيخ إلا ليبحث عن حفيده؛ كما يبحث عن ظله؛ فهو يتشبث بلباس جده؛ حين يغدو ويروح؛ وهو ملاذه عندما تهدده عصى الأب أو الأم. ما يبحث عنه عادة أعشاش الطيور، وهو طليق في الحقل؛ ليلهو ببيضها، ثم يطرحه في مكان ما. فما أثار إعجابه جرادة كبيرة تنط؛ بين سيقان السَّنابل، والخشخاش، وفي غمرة الفرح بصيده الغريب؛ لوح

بالجرادة أمام عيني جده؛ الذي اختطفها من بين يدي الطفل وتأملها، فارتعش صوته:

– هذا نذير؛ الجراد في طريقه إلى التهام الأخضر واليابس؛ ما أينع ونضج؛ سيجلب معه الجوع والموت.

فانقبضت نفسه لمنظر مخيف تخيله: (حوافر الدواب لا تَدْرس في الأجْران غير التبن، ولا أثر للحب، ومطامير الحبوب حفر خاوية مملوءة بالأفاعي، والعقارب، والحيات، والحجارة المخرومة، وفروع النباتات اليابسة والأشواك، والأطفال، والعجزة يموتون، والرجال يتقيأون، وفي أمعائهم مغص الإسهال).

نادى الشيخ على الجميع، وطالت صيحاته؛ حتى ذهبت بنفسه، وتحشرج صوته؛ فكان أضعف من أن تحمله الريح؛ إلى آذان الفلاحين، وقاوم انحناءاته؛ ليراه من في الوادي والمنخفض. جرى الحفيد يوزع كلمة (الجراد) المرعبة بين الأطفال والرجال؛ يخدش الشوك ساقيه، ويتدحرج الحصى تحت قدميه، تتعثر وطآته في تراب جذور النباتات. لوح الشيخ بعكازه؛ فنظر إليه الجميع؛ فاحتذاؤه في إبادة الجراد بفروع الأشجار المورقة؛ من طرف القرويين؛ عُرْف القبيلة. مشى في وسط الحقل مجللا بخليط من الأصوات، والهتافات والمناداة، وصيحاته تستنهض الهمم، تطرق أذنيه كلمة (الشيخ)؛ يستزيد بها فخرا وتقدما. سألوه عن علامات هجوم الجراد؛ فقال:

– هي سحابة سوداء؛ ستحتل زرقة سماء ماي الصافية؛ عند الأفق؛ ثم تنطبق فجأة بالحقول؛ لتلتهم أخضره، ويابسه.

جمدت الأجساد في أماكنها، وتعطلت حركاتها، تتطلع الوجوه إلى السماء؛ أفقدها الخوف الذي غزا نفوسها السكينة، وتصنتت الآذان، وتأهبت إلى سماع غير زقزقة عصفور، أو نباح كلب، أو ثغاء الأغنام؛ ما

يشبه حفيف أجنحة منتظم؛ لسرب هائل من الجراد؛ لكن بعد برهة طرق مسامعهم هدير مراوح ومحرك طائرة.

«هل في كلام الشيخ افتراء؟»؛ همس بهذا لسان بحذر، تحفظ صاحبه، ولم يقر كلاما يعني شيخا له قدره؛ في أذن من توسم فيه الكتمان.

زاغت عيون القرويين عن الشيخ؛ لتشد أنظارهم طائرة بيضاء؛ ترتفع في الفضاء الرحب؛ ثم تنخفض، وتحلق فوق الرؤوس؛ فانبهر الجميع لتحية الطيار، فرقص لها الصغار، وهتفوا، ولوحوا بأيديهم، أما الكبار فتسمروا في أماكنهم؛ مأخوذين بهيئة الطائرة، وشموا رائحة مبيد؛ فتساقط الجراد جامدا؛ كأنه حبات بَرَد أسود أمطرته السماء. هبطت الطائرة بعد دقائق على مسرب منبسط ترب، مهدته حوافر الدواب، وعجلات العربات الحديدية المطاطية، ثم رأوا الطيار يترجل، وهو ينكفئ على الأرض، شاهدوه يتناول جرادة ميتة؛ هي دليل نجاح المهمة التي من أجلها حلق من بعيد، ثم أدار محرك الطائرة، فانخرطت مراوحها في هدير مستمر، وأقلع مخلفا وراءه زوبعة من العَجاج.

لم يدر الجمع ما كان يدور في خَلَد الشيخ، فانفراج صفحة وجهه، ومسحات من يده على لحيته الشيباء، ونظرات عميقة توحي بتغليب الحكمة والتفكر؛ لم يمنح لهم هذا جميعا خيطا يقودهم إلى تفسير ما يدور في نفسه، فهو قد استرجع لحظتها صورا شتى من الماضي البعيد: (كانت السماء تمطر قطرات في الخيال، و ماء الآبار يجري في الحُلْقوم هباء، وغارات طائرات الأمريكان في أوروبا؛ في عِقد صباه؛ تُرعب صغار العصافير في بيض لم يُفْقس بعد، وجموع القرويين سلكت طريق المدينة الغانية؛ ليتعيشون من بيع الأعراض؛ في كهوف الليل؛ ذات أضواء تتلألأ خُفوتا).

فهو قد تلقى دروس الحياة المديدة، وخبر نوائب الزمن الناحرة، فلم يكن أبلد مما يتصورون؛ لكنه حنين ذكرى أيام خلت، أيام الجراد المحمَّص على النار، والسنابل العطشى للماء، والأرض القفراء؛ تدب عليها سحلية لاهثة في أُوَار الصيف، ونبتة برية تهفو لها معدته؛ يقضم أوراقها وعُسْلوجها.

بيت الأجداد

حَنَّ إلى بيت الآباء والأجداد؛ هنالك بعيدا عن بنايات المدينة الأسمنتية؛ التي تمتد أطرافها الأخطبوطية؛ لتلتهم ما كان نبع ماء، وما كان حقلا لعيدان سنابل في لون الذهب، وما كان بستانا لأشجار مورقة بالخضرة، ومُثمرة بالعنب والتين والزيتون والبرتقال، والليمون، يرتفع غبار الأسمنت على جميع الأشياء؛ حارا يحبس الأنفاس، وأتربة الأرض يكون قد بللها ماء المطر، فتصير رطبة ذات رائحة، وفي باطنها جذور نبت أخضر؛ غدا هذا خيالا، وإن عين الإنسان لشوق عارم إلى رؤية ذلك عن كثب لأنه يحييه؛ إنه إكْسير الحياة، ولا آدمية بدون تربة بنية اللون، ذراتها تركة أزمنة جيولوجية ضاربة في القِدم، وماء رقراق عذب يخرج من بين صخور غطاها الطُّحلب.

لنْ تمحو سنوات عمره التي نيفت على الخمسين؛ من مخيلته صورة بيت جده، كانت لبنات حيطانه من حَجَرٍ، شُدّ بعضها إلى بعض بالتراب، ومُلِّطت بطبقة من التراب نفسه، وطُليت بالجير الأبيض. حُجُره فسيحة، سُقوفها من أعمدة متوازية، وأخشاب مصفوفة؛ غُطّيت بمخلوط من التراب والجِص، تحيط بساحة واسعة. فُرُشه من حُصُر منسوجة بالدَّوْم، وبخيوط من صوف ذات ألوان زاهية، ولن ينسى أبَد تلك الأعوام زريبة البهائم، كانت إلى اليسار من باب البيت.

في لحظة؛ كأنها نور أومض فجأة ثم انطفأ؛ تذكَّر الآباء والأجداد وهم أموات؛ يدعو لهم بالرَّحمة، والمغفرة، وبمأوى الجنة.

لم يمْهله العمل؛ فلم يخْل لنفسه، ولو لزمن يسير؛ يُطبق فيه جفنيه، ويغيب عقله، وحِسُّه؛ عن كل ما يدور حوله؛ فيَستسلم فيه لنوم عميق، أو لجلسة حميمية بين أفراد أسرته، وهو إلى جانب كثرة انشغالات ذلك العمل، واجتماعات مستعجلة، وأيام دراسية داخل البلاد وخارجه؛ حبيس

حركة تراقصية في ذهاب وإياب؛ صباح مساء؛ تحمله خلالها سَيَّارته عبر شوارع متشابكة؛ من مقر عمله إلى بيته؛ فتنهال عليه صور من الماضي، وذكرى أيام مضت، ووجوه أشخاص أحسنوا عِشْرته، فيجد في هذا عزاء، يُنَفّس عنه كُرْبته.

تساءل بينه وبين نفسه: «هل ما يزال بيت جدِّي على حاله، أم انْدرست حيطانه؟».

وهو منذ أعوام لم تطأ قدماه تلك الأرض؛ الضاربة في الامتداد إلى الشرق وإلى الجنوب، ولم يسلك ذلك المِسرب التَّرِب؛ يحاذيه بيت جده، تهبط أمامه أرض حادِرة؛ إلى بئر كانت مورد ماء للإنسان، والأنعام، والدواب، والطير.

في صباح يوم من أيام صيف أحد الأعوام؛ لم يرافق أفراد عائلته إلى شاطئ البحر للاصطياف؛ كما دأب منذ سنوات، وأخبر زوجته وأولاده؛ بأنه سيُسافر بدونهم إلى مكان؛ سيُطلعهم عليه حينما يعود؛ فلم يهتموا بالأمر، وتركوه على سجيته، ولم يلحوا في أي السؤال؛ ثم امتطى سيَّارته، وحررها من كوابحها، وترك أعضاء محركها تهدر في تناغم وانسجام، وسار بتريث في أزقة وشوارع المدينة، ثم بعد ذلك لفظته الأبنية إلى طريق منعرج؛ يخترق أراضي البادية الواسعة، فساحت عيناه في ذلك الامتداد، بعد أن كانت حبيستا أروقة طولية، وقاعات ضيقة؛ تحيط بها جدران عالية، وأوراق بيضاء يظل مشدودا إليها، وعقله يخترع الأفكار فيخُطها مدادا، أو حبيستا شاشة الحاسوب؛ يتفحص المواقع الإلكترونية، وأرشيف الإدارة.

بسط ذراعه الأيسر خارج نافذة السَّيَّارة، فلفح يده هواء لاهِب، وكان قد استخدم جهاز التبريد؛ للتخفيف من سخونة الهواء والمحرك؛ التي تسربت إلى الداخل، لم يكن متعجلا، لذلك كان قد خفف من السرعة؛ حتى يتمكن من أن ينقل عينيه إلى حيث يشاء؛ إلى صف من جذوع الأشجار

يسرع عكس اتجاهه؛ إلى بيت تفكك طينه، وانهارت حجارات جدرانه، يتوسط أرضا بائرة، ولم يبق من السَّور المحيط به إلا أجزاء؛ لا يستبعد أن تكون مآو للأفاعي والعقارب .

قال: «إنه مكان قوم كانوا قد عمروه أفراحا وأتراحا، ولما تحدث الذين قدموا من المدينة عن غجريتها، واروا جثث آبائهم، وأجدادهم في قبور من تراب وحجارة، وحزموا أمتعتهم ورحلوا، مُنجذبين بذلك البريق الذي تتلألأ به حليّ المدينة؛ الحسناء ذات مال».

وهو يوغل في تلك التلال والسفوح؛ ويضمه سهل؛ يحلق نظرُه في أجوائه الرحبة، يشعر بالطُّهر يغمره، وأنه تخفف من تراكمات حياة مُضنية؛ ظل يرزح تحت ثقلها؛ منذ أن انغلقت عليه الدّروب، وطبقات تزداد علوا من الأسمنت وأسياخ الحديد؛ إلى حد أنه كاد أن يُقنع نفسه بأنه لا مخرجا له من متاهة؛ ينطلق من أحد أركانها؛ ليعود إليها بعد رحلة بحث عن المنفذ المفقود.

هل يكون قد عاد القَهْقرى إلى ذلك العهد؛ الذي كان فيه طفلا؟ وكان أحب شيء إليه ذلك المِسرب المحدور، فتتوق نفسه إلى أن يستسلم لجاذبيته، فيركض في أرضه التّربة الممهّدة، وقد لمحه من بعيد، فنزت عيناه دمعا، وأفرز أنفه بقايا عطر منديل أمه؛ عندما كان يتشبث بأطراف ثوبها، مُستعطفا إياها أن تتركه وذلك الحدور؛ الذي يجذب ساقيه الصغيرتين للترويض.

وترجل من السيارة، وطفق ينقل عينيه في أصغر وحدة قياس من مربع ذلك المكان؛ فوجده كما هو: الحاشية التربة؛ يحدها عشب بري أخضر، وزهور صفراء اللون؛ مازالت تقاوم حرارة الصيف.

ثم احتوت عيناه وبلهفة عجِلة بيتا؛ ما تزال الطريق إليه طويلة؛ فبدا صغيرا ومنعزلا؛ وسط أراض ضاربة في كل الاتجاهات الجغرافية، ويكبر كلما تقدم،

ويترك عجلات سيارته تدور بلا تخفيف، وهو يسمع من حين لآخر احتكاكها بالحجارة، وبفروع نباتات شائكة، وفرح طفولي يغمره؛ حين لاحت له من بعيد شجرة التِّين، تُظلل أوراقها العريضة والغامقة الخضرة بئرا؛ بجانب جِداره حبل قِنَّبيّ ودلو، وترسبت رائحتها الطبيعية الخالصة في خلايا جدارات أنفه، تتضوَّع في منخريه؛ كلما ساحت بفيحان، قال: «... ونحن صغار، أنا وأخي وابن عمي، أقوانا يتعلق بفروعها؛ ليرسل إلينا حبات تين يانعة الْقشرة، تفرز سائلا سُكَّريّا، ونحن في لهو لا ينتهي؛ إلا بصوت آمر من الآباء والأجداد».

ثم أن هدير السَّيَّارة انفجار كونيّ؛ دوَّى في أرجاء البادية، فنبح كلْب، ونهض يسترعي انتباه القادم إلى حِمَاه؛ كأنه يقول: «كفاك حيث أنت؛ وإلا فإن غشاء لحمك يتوق لعضَّة من أنيابي».

وفي أعقاب ذلك النُّباح؛ تحرك الهُوينى جسد شائخ، وخطا بثلاث قوائم بتُؤَدة، وفاجأ القادم من بين حجارة سور؛ كأن التلقائية التي تتحرك بها أعضاؤه؛ يعرف صاحبها، فنادى بصوت مسموع:

- أهذه عمتي؟

وهي تنظر إليه بانحناءة لاثمة، وبدموع بهيجة بللت خديه؛ فضمها إلى صدره، قالت له:

- هل تظن أنني نسيتك؟ ما زالت عيناك واسعتان، وحاجباك ممتدان بالسواد، كما كانا منذ زمن طويل.

ما زال إذن فرد من تلك الأسرة الأبوية؛ التي تناثرت شظاياها في كل حدب وصوب؛ حيا يرزق.

شدت بعَضُده، وقادته إلى الداخل، فضمه فناء رحب، وسقوف وجدارات منهارة؛ إلا حجرة واحدة هي مسكن العمة.

جالت في أرجاء البيت، وقد أصبحت خيزرانة؛ أيقظ فيها القادم حنانا أمَويّا؛ ظل راكدا منذ عهد قديم، فجدد عنفوانه؛ تُعِدّ إبريق الشاي، وتستعد لشيء آخر؛ كان مفخرة، وهو كرم متوارث، وموثق في كتب الطَّرَائف والملح.

قالت:

– كنت أنتظر مجيئك، وأدأب على سماع ما يرد عنك من أخبار؛ فكانت فخرا لي؛ قالوا بأن ابن أخيك كان تلميذا مجدا، وطالب علم؛ مُستغرق فيه إلى حد الهوس؛ وقد صار له شأن. لم أستغرب ذلك؛ بل هي وراثة خَصْلَة؛ انحدرت من أصلاب أجدادك، وما احتفاظي بذلك الصندوق الخشبي؛ الذي كان ملكا لأبي؛ أي جدك وبما هو مرتب فيه.

فتحاملت في مشيتها، وأتت بالصندوق؛ ففتحته؛ فتقدم هو وشاهد محتوياته: كتب قديمة مُسفرة ومذهَّبَة، وكيس جلدي؛ كان قد جُذب خيط من جنس جلده، فانحبست فوهته على شيء محفوظ بداخله، كانت الكتب؛ كتاب الله المسطور، وأجزاء كاملة من مُوَطَّأ الإمام مالك بن أنس، وأخرج من الحافظة الجلدية ساعة جيب سويسرية؛ تُذيلها سلسلة؛ وكلتاهما من الفضة.

قالت:

– اِحْمل بُني جميع هذه الأشياء؛ فهي دلالات لأبنائك من بعدك، وكذلك الساعة فهي دائما لصلاة وَقَتَها العزيز الجليل.

قال:

– كأنّي في حاجة إلى شيْء ما هناك من حيث قدِمت.

قالت:

أن تصل رحمك، وأن تتناول يداك تركات من ماض مجيد.

وعاد بعد أيام، وقد سرّته، وأطْربته أحاديث العمّة؛ من روايات يشهد عليها بيت جده، وحكايات، ونوادر؛ من سالف العائلة الكبيرة.

الْغوّاص و السّرطان الآلي

عاودتني رغبة الغوص في أعماق مياه الأُقيانُس، فحركت بقدمي زعانف كبيرة وثقيلة، دفعتني بيُسر، وبهدوء في باطن الماء، مُستنشقا الأكسجين المعبأ في قارورة، تشدها إلى ظهري أحزمة مطاطية، فرأيت وهادا، وأغـوارا، وغابات من النباتات البحرية، وكائنات غريبة الشكل. برز من بين الصخور سرطان؛ يكبر عن ما ألفته عيوننا من سراطانات الشواطيء الصخرية، يثير الرهبة بنواتيء درعه، وبمخلبه الحاد الذي يُشهره كلما شعر بخطر يتهدده، ورغم ذلك تعقبته؛ مُتأملا حركاته الفريدة في محاذاته للصخور والأجمات البحرية، وحاولت الإمساك به؛ فاختفى في سحابة رملية يُثيرها بدبيبه، فلم أخل سبيله؛ بل جَددْت في البحث عنه، فرأيت في لحظة ما ما يصطبغ بلون الصخر يتحرك؛ لم يكن كائنا آخر غير السرطان، سبح بعد برهة بعيدا يضرب في الماء بأطرافه المرنة، فاقتفيت أثره في تحد وعناد، ورأيت أحيانا أنه يتقهقر فيلوذ بحفرة، فيبقى لصقا بها؛ فانتشله بقوة، لم يبد أية مقاومة؛ فاستغربت لأمره، وتأملته عن كثب، فلم أدرك طبيعته، لم يكن سرطانا حيا، هو شيء شبيه به؛ اجتاحتني أفكار وخيالات كثيرة، في عمق المحيطات والبحار بقايا سفن وغواصات، وطائرات غارقة، وهياكل آدمية لم تتحلل، وقنابل حية قابلة للانفجار، وأدوات معدنية، فتصورت على التوّ محطات تحت الماء؛ يسكنها بشر يقومون بأعمال؛ لا تطرأ على بال سكان الأرض؛ لذلك أرتاب أحيانا فيما يجري في أعماق المحيط.

وضعت السرطان بحذر كبير؛ في كيس مربوط إلى حزامي؛ الذي يحمل ثُقّالات الرصاص، وحركت زعانف قدمي، فارتفعت أشق الماء، ألتفت بخوف مرة بعد مرة في زرقة ماء البحر، أتخيل جيشا بمثل هذا السرطان يتعقبني؛ باستنفار رهيب، لأن عضوا من كتيبته يوجد عندي، ولما ظهر لي غاطس مركبي؛ أسرعت وتمسكت بالحاشية وامتطيت المركب على عجل،

ووضعت السرطان على طاولة الفحص، وفي باطني رجاء من استنفد كل وسائل الكشف؛ عن شيء له لغز غائر؛ من أن لا يوجد في أعماقه قنبلة بعَدَّاد تنازلي. قد تصدق نبوءتي؛ فلقد طفحت تِقانة العصر، وأنَّ اِلتفتُّ بوجهي أجد ما يُذهلني، وما يُريبني.

قيل أن في خَرَسانة الحيطان، وفي السقوف قضبان الحديد، ولاقط صوت.

ضغطت بإبهامي على أعضائه، فلمست فيها ليونة طبيعية، أتيت بمشرط، وشرعت أشق الأطراف والرأس؛ فكشفت عن جهاز متكامل؛ ذو نظام آليّ وتقاني معقد؛ من أسلاك موصلة للطاقة، وقطع مغناطيسة، تحتل مركزه نواة عقل إلكترونية؛ ببرمجة دقيقة، يستمد طاقة تشغيله من الفارق الحراري لمياه سطح البحر الدافئة ومياه الأعماق الباردة، فهي إذن أعضاء سرطان طبيعي محنطة بمواد كيماوية، عبارة عن غشاء يلف آخر آلي: لاقط صوت، وجهاز إرسال وآستقبال ذبذبات صوتية، وشفرات؛ يتم تحليلها، وتفكيكها في مركز ما.

اِرتسمت أمامي صورة فظيعة؛ لعدد كبير من هذا النوع من السرطان، يدب ليلا بالقرب من سواحل المحيط، ومياهه الضَّحلة، تنقل أغشيتها الاصطناعية الحساسة؛ همساتنا، وهمهماتنا، ودبيبنا، وحركاتنا، وتنسخ ملامحنا، ونظراتنا، وقاماتنا.

قلت في نفسي: «ألا تكون في الدماء المستوردة أجهزة رصد مجهرية؟ تنقل نظام مجتمع بكامله إلى حواسيب، يسجل في أقراص، ويوثق إلى حين؛ إن في هذا كله نشوة إبداع وخلق ، وحافز وتفوق، وسطوة أيضا».

وأردفت متسائلا: «أليس فيه زحف وسيحان؟».

فقلت: «إنهم بلا شك يُعاينونني الآن، ويقرؤون ما يجول بخاطري، وما يخططه فكري. إن هذا السرطان الذي ما تزال فيه نبضات بقية من طاقة

كهربائية ينقل ضربات قلبي، وتشنجات أعصابي، وتقلصات أوداجي، ويترجمها إلى لغة؟»

لم أتردد، فأدرت بسرعة محرك المركب، ولذت ببيتي الشاطئي، وسرت حثيثا إلى الحجرة، وأحكمت إغلاق بابها ونوافذها، وتصورتني أنني في حصن منيع، جعلت السرطان في طست، وصببت عليه كمية من البنزين، وأضرمت فيه النار، فاحترق وتفحم، ثم صار رمادا أذروه بأصابعي.

شعرت بفرحة انتصار؛ فبتسمت، وغمرتني نشوة، وقلت محدثا نفسي: «ألم أكتشف جهازا ينقل نأمة، وإشارة من يمشي على هذه الأرض، وأبطله، وأدمره؟».

ما لبث أن داهم غرفتي ثلاثة رجال في زي عسكري، يحملون رشاشات، ومصابيح يدوية قوية النور؛ أوثقني اثنان منهم، وسحب ثالثهم من جيبه جهاز مغناطيس، ثم مرره فوق الطست؛ فانجذبت إليه حبة معدنية، تناولها بين أصابعه؛ فانفرجت أسارير وجهه، وقام آخر بملء خزان إبرة بسائل قنينة، أفرغه في عروقي، وتركني أهوي على الأرض؛ عبثا حاولت أن أقف على رجلي، وأستند إلى الحائط؛ فتمددت على ظهري؛ أحسست ببوادر غيبوبة، لم أعد أبصر بعدها شيئا، فقط سمعت وقع أحذيتهم يبتعد، ثم ساد المكان سكون.

اِمرأة من أهل الوبر

أتذكّر آمرأة؛ كانت مُسنّة؛ ليس لها تاريخ ميلاد مُوثق؛ عاشت حتى خرِفت، وبخرفها فقدت البصر، وكانت تزحف ولا تمشي؛ كان عمري اثنى عشر سنة؛ عندما قدِم أحد أقاربنا من البادية؛ يحمل خبر وفاتها إلى أبي؛ لأنها كانت أمه؛ أي جدتي؛ الموشومةُ الجبهة والذقن والسيقان، وما زلت أذكر أيضا أنها كانت تُكرّر إحدى وصاياها إلى والدي، وتُلح في كلامها، ولا تترك له فرصة التغاضي عنها،كانت توصيه بأن لا يعرض ابنيه؛ فلذتا كبده، في سوق لبيع العبيد؛ إذا حلت به فاقة أو ضائقة؛ فعرفت حينئذ أن جدتي كانت تفكر وتنطق؛ بعقل يعود إلى زمن الرق.

فكم يا ترى عمّرت جدتي من السنين؟

كانت تروي بأسى عميق؛ أن أحد سلاطين البلاد أرسل جنودا؛ يمتشقون السيوف، ويحملون البنادق، ويحوزون ذخيرة، وإمدادات؛ إلى بلاد قبيلتها؛ فنصبوا شَرَكاً، وقد شقَّ عليهم ذلك كثيرا، ليقبضوا على أخيها، ويحملوه في قفص مُحكمة قضبانه إلى مدينة (فاس)؛ حيث مقام ذلك السلطان، ولم تعلم خبرا عن مصيره بعد ذلك.

كانت تنتظر عفو السلطان عنه فيعود، أو يهرب؛ لأنه كان بشراسة أسد، واندفاع فهد، وله حيل الثعالب؛ لأنه كان سائبا، ولا يستسيغ ضريبة الفلح، ولا يستجيب لجباة السلطان، ولا يخاف جبروت هذا السلطان، لكن خاصة أهالي (فاس) أذاعوا نبأ؛ صدّقه البعض منهم عن جهل، وأُرغم على البعض الآخر؛ الذين يعرفون حق المعرفة نوايا حاشية السلطان، فلم يجرؤوا على مخالفة ذلك النبأ؛ نبأ أخيها الذي يقول: «هذا الرجل العُروبي؛

أحد حفدة الأعراب الذين هاجروا من الجزيرة العربية منذ مئات السنين؛ قاطع طريق؛ قاتل خطر».

كانوا يُرددون هذا الكلام؛ قد يقطع على قوافل الجمال، وركب الخيل طريقها، فلا يصل تِبْر بلاد (السودان)، ولا ريش نعام الصحراء، ولا عبيد، ولا إماء إفريقيا؛ إلى تجار (فاس) الميسورين، ليزداد ثراؤهم.

كانت تجلس بين الظهيرة، وغروب الشمس؛ وسط الخيمة المنسوجة بوبر الإبل وشعر الماعز، مُتناولة مِغزل الصوف، وتُعدّد نائحة بسالة أخيها، وتنظر بتطلع عبر المدخل؛ مرة بعد مرة إلى الخارج؛ في ذلك الخلاء؛ خلاء البادية الضارب في الامتداد، مُتعلقة بذلك الأمل؛ أمل عودة أخيها. في الليل حين تلتقط أذناها نباح الكلاب؛ تتحفّز في نهوضها، وتنتظر هذا الذي سينبثق من الظلام الدامس، أو سيكشف ضوء القمر عن وجهه؛ فيكون أخاها، وتظل تتسمع استرسال النباح، وليس هذا الوقع إلا وقع خطواته؛ يضرب بجزمته الجلدية في أتربة سفح التل، فتنهض، ويتهلل وجهها، ويطير قلبها فرحا؛ إلا أن نباح الكلاب يخفت، ويسود فضاء البادية سكون مُخيف؛ كأنه الموت، وما تظنه حيا يدنو ما هو إلا شبحا، وحلم يقظة، وخيالات، فتعود إلى أساها؛ وإلى بكاء مُرّ إذا خلت إلى نفسها، والتجأت إلى ركن قصي؛ من محطة العشيرة.

كانت جدتي تندُب رحيل أخيها الأبدي، وتفيض عيناها بالدموع على صفحة وجه جافَّة، أجدبتها نيران تستعر في باطنها، وكانت تتأهب باستعداد مُستميت، إذا ما عادوا لسبيِها، فهي أمة أو جارية للسلطان، أو هدية لغيره، فهم يجهلون ليلة من الليالي؛ وقد لا يُصدقونها؛ إذا حُملت إليهم

حكايتُها، فقد رُوي بأنها قبضت دون ارتباك على (مُكحلة) بارود؛ ثم حشتها بحركة ذات دُربة وخبرة؛ بالمسحوق المصفى من الكهوف الكارستية الناري، وقفزت على صهوة جواد أصهب؛ بقد ممشوق وصلب، أشبه بغصن خيزران في رشاقته وانحناءاته، وتعقبت في تلك الليلة الظلماء لصوصا؛ كان جدي غائبا عن البيت، ربما كان في رحلة عزيب في أرجاء الغابة البعيدة، أو في سفر إلى مراكش؛ ليبتاع مُكحلة وسِرجا مطرزا بالحرير، وأمة معقودة الأرداف، والأطفال نياما، وضرائرها كن في سن صغيرة، كانت هي أكبرهن، وأولهن تزف في ليلة ليلاء، يستغثن من جلبة في زريبة البهائم والأنعام، وصراع دامٍ بين لصوص الماشية، وكلاب الحراسة.

فضغطت على الزِّنَاد؛ فدوت طلقة البارود في الجو؛ تردد صداها هنالك بعيدا في أرجاء البادية، اِنهلعت لها قلوب الصغار والكبار، فتناهى إلى سمعها وقع ركض خيل يكرّ، وأصوات استنفار، وانجلاء أشباح مُفاجئ؛ فهمزت بطن الجواد، تسمّعت لنفيره، وأطربت لصهيله، وصاحت عليه صيحة فارس، غلت فيه دماء الحماسة؛ فتعقبت أولئك اللصوص، حتى أوغلتهم في مكان ناء، وتركتهم هنالك طرائدا للضباع والذئاب.

في الصباح نقل البدو والقرويون إلى بناتِهِنّ العذارى؛ نادرة جدتي؛ سليلة أهل الوبر، ونظروا إليها بإعجاب وفخر، ونَظَم الضارب على الكمان شِعر ملحمَتها.

بَائِعة (آلكلِينكْس)

أديمها صفحة سماء تتشح غيوما ثقيلة سوداء، أو موج بحر جلب يفرز رذاذ الغضب؛ زلزلته يقظة بركان، كانت الأحياء قد استكانت لخموده الأزلي.

بياض منديل رأسها احتلته بقع من غبار الطريق، عفا عن خُصلات هاربات مختلة، وملبدة. نحتت عوادي الزمن في جبهة بارزة أخاديد، وبددت ما لان من اللحم، وأبرزت عظمتي الصدغين، كأن الجلد ألهبته أشعة شمس غشت، فاحترق؛ وتفحم، تتراقص حدقتان غلف سوادهما بياض؛ في عينين واسعتين؛ بزغب أهداب؛ غزا بعضها الشيب. كسا جلباب قدا حنيفا، أحالت أشعة الشمس بنفسجيته إلى لون باهت.

تعتلي نوسان الحياة، وترتجح بها أرجوحة النفس؛ بريق قطعة نقدية فضي يهتز لها القلب طربا، أو يد لماحة لضائقة؛ تخر بها في وهدة حزن سحيقة.

«أيتها اليد الحنونة، ويا أيها الذراع الحاضن، رفقا بحفنة من جسد ضئيل ساكن!».

همس صوت من بعيد تردد صداه في أعماقها؛ رضيع في قماطه تسترحم به قلوبا تمتطي نغمات موسيقى الظهيرة، وتستأنس بهسيس ريح اندفاع السيارات؛ على أسفلت مصقول بالقار. بذرة هيام مارق، لاذ ذات مرة بخلوة لتنطفِئ جذوته، فنشب مخالب الخطيئة في قلب صغير غِرٍّ وغَضّ، فاعتصر صديدا.

كان عليها أن تتستر على حفيد؛ اِنكسر عوده عن جذعه، وشطحت به رياح الخذلان، وتفيض دموع الغفران؛ في لحظة يأس وآستخذاء، فتتفوه قائلة: «اللهم غفرانك».

فتبكي بصوت مكتوم، وتنهيدة قذفت بحمم باطنية تسعرت نارا، وشهيق أمسك أنفاسها؛ فتتقرح المقلتان، ويحترق الخدان، فتتشبث اليد المضطربة بطرف المنديل، تُكفكِف به دمعا غزيرا.

في نظراتها استعطاف، وهي تعرض بضاعتها من أوراق المسح والدعك؛ تُهدهد الرضيع المقمَّط باليد اليسرى، وتبسط يدها بعلبة (الكلينكس) باليد اليمنى؛ إلى مالكي السيارات؛ في ساحة موقف؛ وسط المدينة، أو يُفرمل طابور السيارات؛ على أضواء عمود علامات المرور؛ فتنكفئ على زجاج النوافذ؛ وتنطق مُستجدية لفقرِها:

– كلينكس..؟ كلينكس..؟ كما ترى؛ من أجل حليب الرضيع.

تنظر إليها العينان الهادئتان؛ من وراء زجاج نظارة سوداء، وتضغط اليد المكتنزة الباردة على زر؛ فينغلق دونها الزجاج أوتوماتيكيا، عن شذا عطر غريب، وطيات كرسي وثيرة، ورائحة تبغ سيجارة، وموسيقى مرحة، وتزحف السيَّارة، وتحلق؛ فقد أشيع أنهن يستعرن رضَّعا للاستعطاف؛ فيندق دوي صوت في جدارات جمجمة الرأس، فتقول يائسة:

– لا كذب فيما ترى؛ هذا حفيدي؛ لا عائل له سواي؛ حملت به أمه في لقاء عابر مُندفع.

وتمضي بائعة الكلينيكس تتنقل بين المتاجر والمقاهي والساحات، تتفحص الوجوه من بعيد، فلا تتقدم إلاَّ لمن تراه أنه يرثي لها؛ فيجود، ولا يتحرّى؛ أصادقة هي أم كاذبة؟

شجرة الغابة المنقرضة

على عتبة اليقظة؛ دَهَم مسمعي ما يشبه دوي انجراف حمولة واد، من مياه وحصى وأتربة؛ إنه صوت المحركات الانفجارية؛ يصدر من بعيد؛ من جهة ما، وقرقعات سطل متقطعة؛ إنه الجار يتوضأ لصلاة الفجر، وبكاء رضيع اِرتفع فجأة في هَدْأة الغَسَق؛ تُبكيه معدته الفارغة، ونهيق حمار ثَلَم جدار الصمت، وزعيق قطين؛ يتأهبان لنزال دام، وسعال يخدش حنجرة صاحبه.

وجدتني ممددا على ظهري، ورأسي غارق في الوسادة اللينة. وجهي إلى سطح الغرفة. فتحت عيني؛ أضواء الشارع تُجاهد ظلمة تغرق فيها معالم المكان. كما يومض البرق في ظرف لحظة، فيخطف البصر، وكما يُزلزل الرعد السحب الثقيلة، والجدارات؛ يُجهر مكبر الصوت بتكبيرة المؤذن، تحمل صداها نسائم الصباح؛ لتُرَجِّعها شعاب نائية.

يستحث الآذان النائمين، ويُذكر، ويُنذر. هل في اضطجاعتي ما يوحي بالموت؛ بالفناء؟ ليل السحر ضارب في الظلمة الحالكة؛ في السكون الطاغي، والهدوء المطبق؛ إنها رهبة القبر؛ تخنقني؛ يعاودني الإحساس بذنوبي الكثيرة؛ هل في استلقائي ما يوحي بمومياء لإنسان لفظ أنفاسه؛ فمدد كهنة جثته، في بواطنهم تغور أسرار التحنيط؛ على قاعدة من حجر الصلصال أو (الگرانيت)، يشقون بطنه، وينتشلون منها الأمعاء والقلب؛ ثم يعالجون جلده بمحاليل، ويلفونه بلفائف من ثوب؛ إنها قِماطه وهو وليد؛ لم تتفتح بعد عيناه على الدنيا؛ بطقوس دينية مهيبة تذكر بيوم البعث؟ وما رأيته أيضا في حُلمي منذ لحظة.

أسرعت دقات القلب، وانتظمت الأنفاس في حركة صاعدة وأخرى هابطة، وتفجر العرق من الجسم، وضايقتني سخونة مضجعي، ومَخَطَ الأنف هواء لافحا؛ أرزح تحت غُمة الحلم؛ تغلف قلبي أهواله. لحظات

اللذة يَغْصِبُها منا العمر الطويل، ورغبة الشباب الطافحة، والنفس اليانعة تفور بالحب؛ كنت أقول، وتزحف الشيخوخة؛ فتفتر الأعضاء، وتضمحل الإفرازات، وتخبو الشهوات، فينكفئ الجسد، وينطوي على نفسه؛ حينئذ تفيض الصدور بدعاء الغفران.

وفي حُلمي بلغت من العمر عِتِيّا؛ تشنجت راحتي على العُكَّازة؛ أتكئ بجسد واهن؛ عروق يدي ديدان بارزة من دم قانيء، وصديد؛ عظامي تكلست؛ يبس الجلد، في كهف صدري تذهب أنفاسي ثقيلة، وتؤوب بحشرجة؛ تختل لها دقات القلب؛ صغُر وجهي في قبضتي؛ تَكَرَّش جلده، وبرز الصدغان، وغار القذال، وذابت الشفتان؛ عيناي تلتمسان النظر من عدستين سميكتين، فلا يخب مسعاهما، فأرى أطيافا تروح وتجيء، وهياكلا وأحجاما. ضربت يدا بيد في حزن ويأس؛ قائلا: «ويحي؛ ضاع العُمْر»، ومسحت آرتجافة أناملي دمعة، وأردفت قائلا: «ويحي؛ ولا نأمة عفو من الرّحمن».

رحلتي على سطح الأرض كانت بلا هَوَادة، ولا روية، أسري ليلا لأسرق نعمة الآخرين، وأصبح مُقامرا مفلسا، أو أربح الورقة المغشوشة. أُمسي ويداي تلملمان ما تبرأ منه عرق الجبين، لحيتي بيضاء كالثلج، أواري عنها خجل الزلة، وحبيبات العرق يندى بها الجبين. اِنغرست في شعرها أصابعي؛ كان شيبها كثّا.

اِلتفتّ حوالي بانذهال؛ اِنتفضت مذعورا؛ نساء كثيرات تزوجتهن، وأبنائي، وحفدتي ينزعون كسيقان السنابل؛ في خلاء ضارب في الامتداد، وزوجاتهم حملن بعد وحام شديد، ينتظرن مواليدا، ورأيت بناء هنا، وبناء هناك، وآخر هنالك، وامتد البصر؛ اليابس من الأرض؛ بدا في مقلتي شظية؛ من صخر بلوري؛ مخدوش بوجوه الجدارات، ولم أر أثرا للشجر؛ البناءات تماسيح شرهة التهمت الشجر، وآستساغت خضرته. تقهقر

عَجَبي، فطأطأت رأسي؛ عيناي تنطقان بشهادة إثبات؛ في يدي حزوز، بطشت في يوم ما بنبتة لحظة انفلاق البذرة، وبشُجيرة تلوح عليها براءة الصغار، وطفحت في يوم ما على الوجه آية حماس يختلج في الأعماق؛ حين هدر بسُعَار محرك جرافة الأتربة؛ والعشب والشجر، وممهدة مسالك وطرق، ورافعات تخرق السحب بلبنات من الأسمنت، والرمل، وقضبان الحديد.

بعد مائة عام كان عصر الأسمنت قد ولى، فأقفر تراب البراري بذُرَارة جُدُر؛ خضخضوها عنوة، فانشقت، وتهاوت، وسُحِقت، وجيء بالزجاج المانع لأشعة الشمس، و(الألمنيوم)؛ عمود يعلوه آخر، فتعاقبت الأعمدة؛ وما بعد السحب ترددت طبقات وعوالم؛ مدن في الأرض وأخرى في السماء.

ظلّ الأشجار كان يُنعشني؛ الكلأ حين تجتره الأنعام تُداعب رائحته أنفي؛ الزهر؛ التُّرع؛ العيون؛ الغربان؛ السمان؛ لم يبق من هذا شيء؛ حنيني إلى نعيق النوارس؛ إلى خوار البقر؛ إلى عواء الذئاب؛ إلى نباح الكلاب؛ إلى صياح الديكة؛ إلى زعيق تيس؛ إلى صهيل حصان، وندى الصباح، وضياء القمر، وحمرة المساء.

كِسْرة رغيف من طحين الشعير، مجمرة على نار وقودها روث الدواب؛ يبسته أشعة شمس الصيف الحارقة، تُشعرني بشظف العيش، والزُّهد.

في بهو سقفه قبة غارقة في زرقة تتلألأ فيها نجوم سماء، وأجساد في دبيب لا ينقطع؛ تروح وتجيء؛ تتحلق بقامات مختلفة الطول؛ حول بيت من زجاج؛ تحيط وجوهه الأربعة بشجرة؛ ينسرب إليها بمقدار عبر أنبوب أكسجينٌ معبأ، وتنبت في تربة غير التراب، وتُسقى بسوائل كيميائية، يُسلط عليها ضوء كاشف ثابت، اِسترعت انتباهي لوحة تومض كلمات جملة؛ هي هذه: «هذه شجرة من غابة منقرضة».

كتمت السؤال: «هل في مدينتنا شجرة؟».

قد أثير سخرية قوم؛ لم أعد منهم؛ أنا الذي أهْرَمني الدَّهْر.

«هل هي حقا شجرة، أم هي فقط صورة لها»؛ مرة أخرى سَرَّ خاطري السؤال، ورنوت إلى الشجرة، وإحساس مفاجئ بالزهو يغمرني، فافترت شفتاي عن ابتسامة الظفر، ارتخت له تقاطيع الوجه، ودب في العينين، فنظرة خبير بالأشجار باردة؛ تسلقت الشجرة في صباي، وعَبِثْت بأعشاش الطيور، وصنعت من فروعها قوسا، ونبالا وسيفا وصولجانا، وتمددت للقيلولة تحت ظلال أوراقها الوارفة وقت الحر؛ فمن ذا الذي يدعي معرفته بالشجر؟ هؤلاء أفراد من أجيال متأخرة؛ لم تر الشجر عن قرب؛ كان البناء قد زحف، وابتلع طوفانه التراب الخصيب، والشجر.

أوراقها لا تهب عليها الرياح، فهي ثابتة؛ لونها أخضر غامق؛ نظيفة، تعكس بريقا؛ يبدو أن يدا تُعنى بها، تمتد إلى طبقات الغبار فتُزيلها برفق، وتغسلها بسائل ما، وعيدانها مُقلمة بعناية، تنفلق فروعها عن أخرى طرية، ووريقات تنِزُّ خضرة يانعة.

تذكرت الجذع؛ فحدقت فيه ببصري؛ حفر العشاق أسماءهم في لحائه، وتواريخ هيامهم، وقلوبا تدميها السهام، وقرأت عليه تعييرا، وما نعابه من كلام، وإمضاءات، وكتابات مبهمة، وكنية امرأة ذائعة الصيت، تحكي قصة ليالي المباح؛ في زمان ما من تاريخ المدينة العريق، وبه آثار قيد وسوط، وكلمتا (يحيا الشعب)، وخدوش دب، وثقوب منقار الطائر النقار، وحروف تختزل اسم فريق كرة القدم، وفرع متفحم، وشعارات، وأمثال، وآية منشار ميكانيكي، وموعد لقاء محموم، ومسمار مدقوق، وسلك مغروز.

عاث السُّوس في بعض أجزائه نخراً؛ همست له؛ قائلا: «تنصتَّ بوجد يائس لعاطفة همساسة، ولهمهمات، ولهاث، وأنين؛ إني أغبطك في صبرك، فما صبر أيوب عليه السلام إلا النزر من صبرك؛ فما أعظم كتمانك،

وجميل حِلْمك! لم تلِن أو تنكسر؛ وقفت صامدا، فلم تنل منك نوائب الدهر، ولا عوادي الزمن. أوغروا في جسمك سكاكينا وخناجرا، فكان نزيف صَمْغك دما، وأضرموا النار في جانب من جذعك، ولاذ بظلالك هارب من قيظ الظهيرة، وراع غنم تغنى بنايه، واستحملت رجلا قضى حاجته، فلم تبد ضجرا أو تأففا؛ أنت زاهد متنسك، اصطبرت على أذى الناس؛ استمسكت بخلوتك، ولذت بمحرابك؛ فلم تزغ عن طريق التوحيد».

جذع شجرة يسرد يوميات من حياة مدينة اندرست، وأصبح اسمها فقط على ألسنة الرواة، وفي كتب التاريخ.

كان الجذع صفحة من كتاب أجهد عيني، فتنحتا عنه قليلا إلى أعلى؛ رحمة ببُؤبئيهما، فآكتشفتا صدفة أشرطة من أثواب مربوطة إلى الفروع؛ في ألوان قوس قزح، ومناديلا، وأحزمة من خيوط مفتولة، وألبسة داخلية، وخضابا عليها بالحناء؛ إنه من فعل نساء ضقن درعا بحماقات أزواجهن، أو كابدن حياة العنوسة، أو أصابت إحداهن لوثة.

فالشجرة إذن كانت تركن إلى جدار ضريح ولي صالح، تتوده، تلتمس حمايته، تُعانق فروعها الكثيفة قبته بلهفة، وتُظلله بأوراقها، وهو يتشمم عطرا أخضرا، ويتحسس طراوة لحائها، وهي تنعم بالاستقرار، والهدوء في كنفه؛ يدرأ عنها استئصال الجذور، واجتثات الفروع، وتتنشق المسك والطيب والند في حضرته، وتتغذى جذورها؛ بما يدلق على الأرض من ماء بئره لا ينضب.

ونقلت عيني إلى وجوه الواقفين، وجدتها نسخ أصل واحد؛ ساكنة؛ اندمغتهم في أذهانهم الشجرة، فعكست صفحات الوجوه أثر ذلك، وهو الشَّدَه، وجذبت إلى حقل مغناطيسها عيونهم، وانصهرت أحاسيسهم المتضاربة، وميولاتهم المتنافرة؛ في مِرجل التعدين؛ فتدفقت رحمة؛ نطقوا

بذات الأسئلة: «هل في مدينتا شجرة؟ من أي نوع هي من الشجر؟ هل لهذا الحد تأول الشجرة؛ حبيسة صندوق زجاجي؟

تصورت أني سمعت صوت أحد؛ يقول: «أنتم يا أجداد الأجيال اللاحقة؛ رصصتم بناء بجانب بناء؛ وبجانب هذا بناء، وراكمتم بناء فوق بناء؛ وفوق هذا بناء، فلعِقت البناءات الماء، والتهمت التراب والشجر».

– جدي..جدي..جدي..

أصخت إلى صوت السمع؛ هل يعنيني النداء؟ أفسدت الذاكرة ما أنعم به من لحظات الطمأنينة؛ بما تختزنه من المسكوت عنه؛ من جُرم فاعل، وجريرة المذنب؛ لم أسنح لهامتي فرصة التفاتة إلى مصدر الصوت؛ فقط شززت عيناي في تنكر؛ آه ما أقسى عتاب الأبناء!

إنه أحد حفدتي، شدت يده أطراف جلبابي بإلحاح، لا أعرف له اسما لكثرة ما تفرع عني من بنين وبنات؛ لا يهم فهو حفيدي وكفى، وجميع حفدتي سيان عندي؛ يداه في حركات مترددة، يطوح برجل، ويهمز بالأخرى الأرض، نظراته سريعة؛ ينقلهما من وجهي إلى الشجرة؛ ثم يعود ليجول بها في هيئتي، أشار بعصبية بسَبَّابته إلى الشجرة، سألني؛ قائلا:

– ما هذا يا جدي؟

أجبته سريعا:

– هذه شجرة.

نظر إليها برهة، ثم إلى نقطة أنأى منها، خمنت أن في ذهنه غموضا؛ ما يزال يكتنف هذا الشيء الذي يستفسر عنه؛ سألني مرة أخرى:

– وما هي الشجرة؟

– كما ترى يا صغيري؛ شجرة لها جذور، وجذع ضخم، وفروع مختلفة السمك والطول، وأوراق خضراء.

أعاد ما سمعه مني بصوت خافت، وسألني للمرة الثالثة:

– من صنعها؟

ونحن بعد أطفال كنا نسأل نفس السؤال فيجيبون: الله، فأجبته بلا اكتراث:

– الله سبحانه وتعالى

– الله؟

– نعم الله.

صمت لحظة وسأل:

– من الله؟

– هو الذي خلقني وخلقك، والأرض والشجر والحيوان؛ هو خالق كل الكون، فأمرنا بأفعال، ونهانا عن أخرى فيها مهلكة لنا.

– أين هو أريد أن أراه؟

– إنه بيننا يعكس وجودَه كائن الشجرة؛ ألا ترى لمساته الفنية في جذعها، وفي أوراقها، وصنعته في فروعها؛ مجرد شعورنا به يؤكد وجوده، وحضوره.

أتى بإيماءة برأسه أن «نعم».

أعقب الحوارَ لحظات صمت. تذكرت وقائع الماضي، صور من مذابح الشجر تتراءى لي؛ كانت جذوعها تُجز بفظاعة. غالى الضمير في تأنيبي، ولاحظ حفيدي احمرار الخجل يكسو وجهي، وارتباكة تكتنف حركاتي، فخاتلته؛ قائلا:

– ما رأيك يا صغيري؛ في رحلة البحث عن البقايا المتحجرة للغابة المنقرضة؟

رفرف كعصفور من الفرح، وصدح مُعبرا عن حرية الانطلاق؛ صيحته توحي بنفس متعطشة للاندفاع نحو المجهول، فسلكنا مساربا لا حد لها؛ وعرة وضيقة، واخترقنا بذهول فجاجا عميقة، وهبطنا بقلوب مروَّعة في

وهـاد معتمة، وتسربنا في كهوف مظلمة؛ أدمتنا رؤوس حرابِها الكارسطية الحادة، بأدمغة يكاد يُتلفها الخوف، ولم نعثر على أثر للغابة المنقرضة.

كفن من أعشاب البحر

كانت تكبيرة المؤذن؛ هي أول ما التقطته أذناه في فجر ذلك اليوم، ففتح عينيه، ورأى من خلال فتحة في الغطاء شمعة يُضيء لهيب فتيلها فضاء الغرفة، فتأمل الشمع الذائب؛ شُبه له بـِ(لاڤا) بركان ثائر، وظهرت له نجمة متلألئة؛ في سماء مظلمة؛ من خلال النافذة الضيقة. كان الجو خارج مضجعه باردا؛ فلم يجرؤ على مغادرته، ولف قدميه بأطراف الغطاء؛ الزائغة عن جوانب السرير، وضم يديه إلى صدره؛ ليستشعر دفئه، وتصنت إلى بسملة أبيه وأدعيته؛ كان يصلي؛ فتخيل ركوعه وسجوده البطيئين، وفكر في عمره الذي تجاوز الستين عاما، واستحضر وجهه المتجعد، وقَوَامَه الذي انثنى، ومشيته التي غدت متعثرة، وقميصه وسرواله اللذين لا يلبس غيرهما؛ في رحلة الصيد بالقارب صيفا وشتاء، وقبعته التي لا تبرح أبدا رأسه؛ حيكت بأوراق إبرية من أوراق الدَّوم المجففة، ورسم في مخيلته نظرات إخوته الصغار التي غيبها الجوع، فهي تسأل في إلحاح عن الطعام، وأمه التي تنتظر أوبتهما بنظرات باردة ويائسة؛ قد يحملان سمكا فيأكلون، أو لا يصطادا شيئا، فتبقى بطونهم تتضور جوعا.

وأهول من هذا، فالبحر يأخذ بقدر ما يعطي؛ فذاكرة أجيال ساكنة الشاطئ تحفظ، وتحكي قِصص البحَّارة، وصراعهم المرير مع البحر، منهم من يغرق، فتجرف جثته تيارات البحر إلى شاطئ مهجور، ومنهم من يُنقذه زملاؤه الصيادون وهو في أسوأ حال؛ ومنهم من ينقلب قاربه، فيعود إلى الشاطئ سباحة، مهدود القوة، مُنهار الأعصاب، أما النساء فيبكين، وينتحبن، ويندبن الخدود، فهن أمهات يثكلن أبناءهن، أو زوجات يترملن، ويُشيعن بنظراتهن الحزينة والمذهولة الجنازات؛ كانت تُوارى التراب هناك بعيدا عن الشاطئ؛ خلف الكثبان الرملية المتحجرة؛ في مقبرة تحيط قبورها التي لها شواهد من حجر؛ بضريح لولي من الأولياء السالفين. حين كَبّر

المؤذن، وصدح صوته في أجواء غَبَش الفجر، وبسمل أبوه، ونظر هو إلى لهيب الشمعة؛ تخيل عالم الآخرة؛ فهمس لنفسه: «كم ستتلظى أجساد من أشرك، وفسد في الأرض و... و.... بنار جهنم».

ذنوب كثيرة اِستحسن تكتمها، ودعا جل شأنه بالمغفرة؛ برهبة ذلك الصباح؛ المعتم ببقايا ظلمة تنقشع ببطء، وبذلك السكون الطاغي؛ سكون الفناء، غير أن ضياء ضئيلا نفذ إلى الداخل؛ نفض عن رأسه غمامة القبور، وهدر في أذنه صوت محرك مركب صيد، ومناداة صياد، وصياح ديك، وزقزقة عصفور، ووقع خطوات أبيه؛ الذي يجُر في تثاقل حذاءه؛ على الأرضية المبلطة بالأسمنت؛ حبيس الهم اليومي؛ سجين في قدميه الأصفاد، أطبقت عليه وحشة السجون، ثم سمع صرير الباب؛ الباب يُفتح ويُغلق، فتسرب إلى داخل الغرفة هواء البحر؛ يحمل برودة منعشة، ورائحة الطحلب، والأعشاب البحرية، والسمك.

نبهه هاتف قائلا: «أنت نائم تستلذ دفء الفراش، والصيادون قد ركبوا البحر يبتغون الأفق».

فرمى بالغطاء جانبا، وقام ليلحق بأبيه، وفمه يلوك لقمة كِسرة خبز عسيرة؛ مدهونة بمربى المشمش، وحفرت قدماه موطئهما في الرمل، وجذبت موجة مُتقهقرة من تحتهما؛ حبات المحارات والقواقع، والتفت بوجهه إلى حيث تهب الرياح، بحركة بحار خبير بالأنواء، ثم تمتم قائلا:

- رياح تأتي من الشمال الغربي .

وجال ببصره ليرى تأثير هذه الرياح في البحر، فلاحظ أن صفحة المياه تتغضن، وأن زبدا يتوج الموج؛ قال:

- أكتوبر؛ شهر العواصف والرعود؛ سيثور البحر.

ورأى طيور النورس البيضاء؛ تحلق وتهبط على صخور الشاطئ، فنعيقها الذي لا ينقطع؛ وصفير الرياح، وهدير الموج، ورائحة الطحالب

والأعشاب، والأفق البعيد، وقارب حذا الأفق النائي، والشاطئ الخالي؛ سيمفونية الموت والفناء، فانتابه شعور ذلك السّحر المظلم؛ حين أذن المؤذن، ولهيب الشمعة، والآخرة، والاصطلاء بالنَّار.

تفحص أسفل القارب؛ بالأمس صب القار في شقوق، وثقوب خشبه، حتى لا ينفذ الماء إلى جوفه. عاين أباه وهو يأخذ مكانه المعتاد في مقدمة القارب؛ يُهيء شباك الصيد، ثم أدار الأسطوانة العصية بخيط مفتول متين، فنفث المحرك دخانه؛ فداهمت رائحة البنزين أنفه، وفكر في المدينة، في حركة مارتها الدائبة، وفي ضوضاء باعتها، وفي زجاج واجهات دكاكينها المضاءة، فحَنَّ إليها، وكره البحر، فنظر بامتعاض الى أمواجه؛ التي تُخضخض المركب، ورابه أمره؛ حين رأى أن ذروة الموج تغضنت أكثر، وزاد زبدها الأبيض، واختفت صخور الشاطئ عن عينيه، كانت قد توارت خلف الأمواج العالية، فأدرك أن والده، وهو قد أصبحا بين الحياة والموت، وهما إن أرادا أن يلوذا بالشاطئ إذا طرأ طارئ؛ فهو قد أصبح نائيا، وهما بحاجة إلى صيد الأسماك؛ فقال؛ وهو يُلقي بالشباك إلى مياه البحر بمساعدة والده:

- إذا جاد علينا البحر بشيء الآن، لابد من العودة وبسرعة.

وإن كان يدرك في قرارة نفسه؛ أن رحلة الصيد قد تطول؛ إن هما أرادا أن لا تكون عودتهما بدون سمك، وأن هدوء البحر، ووداعته هذا الصباح لن تدوم، لأنه شَعَر بهبة ريح غربية باردة، كان عهده بها في نهاية فصل الربيع الفائت، وبداية فصل الصيف الذي بدأ مبكرا هذا العام؛ فأطلق العنان لبصره نحو الأفق، فشاهد سُحبا رمادية ثقيلة تتكاثف؛ تدفعها الرياح نحو الأفق؛ بسطت ظلالا سوداء ومخيفة؛ على البحر؛ تتخللها زخات مطر خفيفة؛ التي حملت برودتَها الرياح، فلمع برق، وقصف رعد هناك بعيدا؛ فكان صوته ضئيلا؛ لكنه آية لحدوث سلسلة من البروق والرعود، التي

رجْرَجت بعدئذ تلك السحب؛ المتشبعة بذرات البخار، فأمطرت ماء وبَرَدا، وعصفت الرياح بقوة، فثارت أمواج البحر، وتخيل بين قمة الموجة وقعرها فك حوت ضخم؛ يحاول ابتلاع القارب؛ الذي ظلت الأمواج والرياح تُميله ميلانا، وسيل من الأمطار يملأ قعره، فتشبثت يده هو باللوح، يسمع استغاثة والده بالله؛ تخبو بصوت الرعد، ويرى جسده الشائخ يرتج، بالرغم من أنه تمسك بالمقدمة. لم يُمهلهما البحر لحظة واحدة، فأطبقت موجة عاتية على القارب، فقلبته رأسا على عقب، وأغرقته.

ضرب بذراعيه في الماء، وطفا على السطح بخوف عارم، وكاد أن يستسلم للموت. تلفت بجنون في كل ناحية؛ يبحث عن أبيه. سبح نحو أشيائهما المتناثرة، لعله يمسك برأسه أو ساعده؛ فلم يعثر عليه، فغاص، وطفا، ثم غاص مرة ثانية وطفا، وللمرة الثالثة غاص، والرابعة؛ حتى كل، وتجرع ماء البحر، فخدشت مُلوحتُه حنجرته.

قال؛ كأنه يهذي: «أيغرق أبي ويموت؟ كان صيادا كُفئا، وسباحا ماهرا، يشهد له صيادو المحيط الأطلنطي بمراسه في البحر؛ سترمي الأمواج به على الرمال، وفيه بقية حياة، هل يكون من بين سكان الشاطئ من يرقبنا بالمنظار المكبر الآن، فيُعلم الآخرين بما حدث؟ ماء البحر مرارة في حلقي؛ صقيع في جسدي».

وصار يسبح في اتجاه الشاطئ؛ بترو، وببطء حتى لا يستنفد قواه؛ ضربة واحدة من ذراعيه، وبقوة؛ تجعله ينساب مسافة كبيرة؛ سيصل إلى الشاطئ مهما كلفه ذلك من جهد؛ وإلا فلماذا إذن احترف البحر، فقد خبر تقلباته، واليأس والاستخذاء لن يجد طريقهما إلى قلبه وذهنه.

فكان كلما صار على قمة الموجة؛ يجذب الماء بقوة، فينجرف مسافة كبيرة، ثم يتوقف قليلا، ويطفو على ظهره، ليستريح، ثم يعود فيسبح. نَفَث الماء المالح، ومَخَطه، واستنشق الهواء، ونظر بعيدا فهتف: «صومعة

المسجد!»، كانت أول ما تبينه من علامات الأرض، كانت تعلو جميع المباني.

قال بشجاعة: «أحببت أن أسمع مؤذنها كما سمعته هذا الصباح؛ ودِدت لو ارتفع صوته بالتكبيرة».

تحمس، وتفجرت فيه بقية قوته، وبدأ يسبح من جديد؛ بإيقاع بطيء، ورتيب. ظلت عيناه تشخصان إلى الصومعة؛ صغُرت حتى صارت بحجم لعبة، فصار يضرب الماء، وتعاقبت ضرباته؛ يحاول الإمساك بها، لكن الموج حال بينه وبينها، وسمع أناسا يتكلمون، وشعر بلمسات على قدميه وبطنه؛ فهمس: «هذا أخطبوط يعصر لحمي؛ قرش يَبْتُر أعضائي؛ يقضُمني».

أحس بدُوَار، وانتابه نوم؛ ثم غاب عن وعيه.

تمسكت يده بشيء ما؛ كان لينا في قبضته؛ فتح عينيه؛ وجد رأسه غارقا في وسادة، وغطاء يلف جسده، فالتفت حوله، فرأى قوارير الأكسجين، وأنابيب بلاستيكية، وضمادات على عنقه، وساعديه، وشم روائح ثقيلة؛ رائحة دماء، وأدوية، وسمع وطء أقدام سريعة في ممر، وبهو، فأدرك أن أحدا ما أغاثه في الوقت المناسب؛ عندما أُغمي عليه، وكاد أن يغرق، إنه الآن في المستشفى؛ يستنشق الأوكسجين المعبأ بدل الهواء، ولا يشك في أن معدته أفرغت من الماء المالح، ولُفَّ جسدُه بالأغطية؛ ليتسرب الدفء إلى أعضائه؛ فيضخ القلب الدم في العروق، وتعود إليها الحياة.

فُتِحت دفتا باب الغرفة، ودلف إلى الداخل ثلاثة رجال؛ بوجوه دكناء، وفي نظراتهم عزاء: إمام المسجد، وأمين الصيادين، ومُقدم الحي؛ ألقوا عليه تحية السلام، وتحلقوا حول السرير، فبادر إمام المسجد إلى تلاوة آية من ذكر الله الحكيم؛ ثم قال:

– مات والدك يا بني؛ إنا لله وإنا إليه راجعون؛ وجدنا جثته على شاطئ الرمال الذهبية؛ بعد ثلاثة أيام؛ ماذا أقول يا بني؛ تقرحت بماء البحر المالح، ونهشتها الأسماك، وكفّنتها أعشاب البحر.

غطى وجهه براحته، ومال برأسه جانبا، وبكى في صمت.

دموع الرجل

لا يمضي يوم دون أن يأتيني زائر.

فتتساءل؛ سواء تفوهتَ بسُؤالك، أو نطقتْ به عيناك؛ نيابة عن لسانكَ، فاتسعتا، وجحظتا قليلا، وتبين من خلالهما فضولك ورغبتك في معرفة السر؛ أي نوع من الزوار أعني؟

ستعرف بعد أن أقول لك إني أعمل بإدارة عمومية، فلا أغادر- إلا لحاجة شخصية أنا في أمس الحاجة إليها- مكتبي؛ الذي رتبتُ عليه ملفات تتفاوت أحجامها، وأوراقا فارغة، ومسودات، ولوائح وقوائم، فتومئ برأسك، وتستحثني بنظراتك المصوّبة إلي؛ ثم تسألني:

- نعم؛ وما نوع العمل الذي تعتكف عليه في مكتبك؛ الذي لا شك أنه أصبح مِحرابا تعتكف فيه؟

فأجيبك قائلا:

- وهو كذلك؛ فإني أقوم بتهييء ملفات الموظفين؛ الذين يبلغون من العمر ستين سنة، وهو السن الذي لا يمكن بعده للإدارة أن تسنح لهم فرصة الاستمرار في العمل، وتستند في ذلك على ما صيغ من قوانين ومراسيم، فتُحيلُهم على التقاعد.

فتنفرج شفتاك، وتبتسم، وفي هذا دليل قاطع على أن الجهل لم يجد يوما طريقه إليك، فأنت تفهم دائما ماذا أعني، وتُدرك مُسبقا ما أريد أن أستطرد فيه من كلام، فتقول حينئذ:

- إذن؛ فزائروك الدائمون؛ ينتمون إلى هذه الفئة من الأجراء؛ التي بمجرد ما يصل أفرادها إلى هذا السن؛ تُصنف على أنها غير نشيطة؛ إنهم المتقاعدون.

- بالضبط، لذلك سأسرد عليك حكاية أحد هؤلاء؛ زارني يوما ليستفسر عن مآل ملفه، قال لي يومها كلاما؛ دمعت له عيناه؛ تصور،

ودمعت عينا ذلك الرجل؛ لم أستغرب موقفه ساعتها؛ هل تعرف لماذا؟ لأن ما أسرَّ إلي من حديث هو نابع من أعماقه، فهو يحتفظ به حيث هو غائر؛ وهذا محض فشل؛ أن تترك في باطنك تأثير ما يحيط بك في هذه الحياة؛ دون أن تهب بإرادة صلبة إلى التخلص منه؛ وفي وقت قريب، وهو يُسيء إلى عقلك، وتفكيرك، ويُخل بتوازناتك النفسية .

فما هي حكاية هذا الرجل؟

كنت أجلس إلى مكتبي، وباب القاعة الذي على يساري؛ يظل مفتوحا، فكنت في مهب تيار هوائي؛ يُزعجني كثيرا ليس موضوع حديثي الآن، فأرى الوافدين على الوزارة، والعابرين إلى المكاتب الأخرى، فأنا الوحيد الذي تلتقي عيناه بأعين هؤلاء، والقادم يبرز من باب يفصل بين ممرين؛ يلتقيان عند زاوية متعامدة؛ فكان على هذا الزائر أن ينعطف، ويظهر فجأة، فتستقر علي عيناه؛ إنه يقصدني، هكذا تُحدثني نفسي؛ كلما رأيت أحدهم تكتشفني عيناه.

كان يخطو ببطء؛ ثم دلف عبر الباب، متوسط القامة، حليق الوجه، ذو أناقة متواضعة، يرتدي ربطة عنق قديمة، يجعل شعر رأسه في تسريحة إلى الوراء، نطق بتحية الصباح؛ بنظرات، وملامح عليها آثار هم دفين؛ رددت عليه بتحيتي، وقدمت له على الفور كرسيا؛ فجلس عليه؛ يمسك بيده اليمنى ظرفا أصفر، وأوراقا عنفتها قبضته؛ فطوتها طية أو طيتين؛ دون ريب هو تعبير عن رفض واقع الرسميات، وكل ما يمت بصلة بالإدارة العمومية، قال بتهكم غير جارح؛ يريد به مرحا:

– هل أنت الذي تقوم بحذف البالغين سن التقاعد؟

ابتسمت، وقلت ببرود:

– أنا شخص أعمل من أجل لقمة العيش؛ مهمتي أن أنفذ ما تُمليه القوانين التنظيمية، والمراسيم؛ على المرفق العمومي، ودوريات، ومذكرات المديرية المختصة.

وأردفت سائلا إياه:

– بعد سن الإحالة على التقاعد؛ تبدأ مرحلة جديدة من حياة الإنسان؛ هل هذا صحيح؟

– قال بصوت مُتهدج، وبحركات متوالية وسريعة من يد؛ تكاد أن تكون متشنجة:

– هذا لا شك فيه.

قلت:

– أريد أن أسألك عن شيء يتعلق بك.

قال بسرور:

– ما هو؟

– كيف تستقبل المرحلة الجديدة؟

أخذ نفسا عميقا، ثم سمعت نفيره، واتكأ بذراعه الأيسر على حاشية الكرسي، أجاب:

– أستقبلها بتداعيات، وإفرازات المرحلة القديمة، أشبِّهُها بأطلال مدينة مهجورة، بالسكينة التي تعقب حربا ضروسا، سكون في الظاهر؛ أما حدث الحرب فله وقع مرير في أعماق النفس، عِشت يتيما، مات أبواي وأنا في سن العاشرة، والتحقت بأسلاك الإدارة العمومية في ذلك الزمان؛ بشهادة التعليم الثانوي، وبأجر زهيد؛ بدأ زهيدا، وبقي على حاله حتى الساعة ضئيلا، وإن كنت أترقى في الدرجة والرتبة الإدارية، وإن كانت الزيادات المقررة تنفذ، فالأسعار تزداد عاما بعد عام، فتبقى التفاهة من سمة أجر موظفي السلاليم الدنيا. جمعت مبلغا من المال؛ اشتريت به قطعة أرض منذ

أربع سنوات، لم أستطع أن أشرع في بنائها؛ لأنني أخاف تقلبات الزمن ونوائب الدهر.

قلت:

– لم أفهم؛ من ما تخاف؟

قال:

– من أين لي بالمال؟ أخاف أن أستدين، فأثقل كاهلي بالديون، ولا أرد مال الدائنين، فتصادر أرضي، فأصبح من المفلسين واليائسين؛ إنه الخوف يا أخي.

قلت:

– إننا بأعين خالقنا، وهذا يزيدنا ثقة في النفس، والحياة كفاح، وسبل العيش، وطرق كسب المال عديدة، يكفي أن تطرأ على بالك الأفكار، وتتوكل، ويجرب الإنسان كم من وسيلة.

قال بامتعاض:

– بعد سن الستين؟

اِستطرد في قوله:

–كانت مهنتي في الإدارة كاتبا، عُدتي القلم والورق، ومطبوعات جاهزة، لم أتعلم حرفة أمتهنها، ترى كيف تكون نهاية الموظف الإداري، يشبه ذلك العجوز الذي لم تعد تقوى أطرافه على حمله، فيبقى في نهاية طابور ذاهب في رحلة طويلة، هل تعرف المصير الذي ينتظره؟ إنه الموت؛ سيتربص به وحش كاسر؛ لأن هذا الأخير يدرك بغريزته أن الوهن دب إلى جسده؛ فهو طريدة لا تُكلِّف عناء.

أضفى بكلامه على جلستنا جوا من التشاؤم، فلم أخف نفس الشعور، وقلت:

– سنلقى نفس المصير.

رفع عينيه في وجهي بذهول؛ ما لبث أن ابتسم، ولم يغب عني إحساسه بالتشاؤم، وقال:

– لا ..لا..سيكون لكم غد أفضل.

قلت:

– هذا ما نتمناه جميعا.

قال:

– لدي ابنة عمرها خمسة وعشرون عاما، وابن في سن الخامسة عشرة، يجتازان مراحل التعليم بلا عائق؛ فكثيرا ما ربيتهما على الثقة بالنفس، وعدم الاعتماد على الغير، وحببت لهم الدراسة، ومطالعة الكتب؛ كان هذا أملي دائما فيهم؛ لكن...

سكت، ونظر إلي مرة أخرى، وأردف:

– خوفي على الفتاة أشد، لقد شاهدت أنت بأم عينيك؛ كيف صار إليه حال المرأة في عصرنا الحاضر.

توقف برهة عن الحديث، ونظر إلي مرة أخرى، تفرست وجهه، رأيته يطفح بالدم؛ استحيا من الحديث عن ابنته، واستطرد:

– لم يتقدم أحد لخطبتها؛ رغم أنها معروفة لدى الأقارب والجيران وغيرهم؛ بانضباطها وحيائها الزائد عن القدر، وإيمانها، وحرصها على تطبيق تعاليم الدين، وأيضا بذكائها الحاد، وفتيات تزوجن بأُنوثة مستباحة.

ودمعت عينا الرجل، ثم أضاف قائلا، وهو يحاول أن يحافظ على هدوئه:

– أتساءل كيف استحالت الأمور إلى هذه الحال، انقلب كل شيء على عقب؛ لا أدري ماذا يريد الناس، وأية مقاييس تبنوها.

قلت:

– أفسد المال الأذواق؛ لا مجالا للحديث عن الأخلاق، والمثل العليا؛ في مجتمعات هذا القرن، الذي يلح في وجوده هو تبادل المصالح، وتحصين

المصلحة الشخصية المادية؛ ما يسود هو الاحتيال، والنصب، والابتزاز؛ بوسائل قد لا تفطن لها.

لم يكترث لكلامي، فهو على إدراك تام بخفايا الواقع؛ لم يحد عن موضوع ابنته؛ فقال:

– فمن يحميها من آفات، وتردي هذا المجتمع؟

قلت:

– أخوها.

قال:

– قد يهتم بها، وقد لا يلتفت إليها؛ سيصرفه بيته في يوم ما؛ عن التفكير حتى في نفسه.

نظر إلى ساعته، ثم قام؛ تصافحنا باليدين، قال:

– لقد أخذت من وقتك أكثر من اللازم.

قلت:

– ولم تسأل عن ملف معاشك.

قال:

– أعرف أنك لا تُدخّر وُسْعا في القيام بواجبك؛ من أجلي والآخرين.

– أتمنى أن أوفق في عملي، وأن أكون عند حسن ظن الجميع.

طأطأ رأسه؛ استدار، وخطا خارجا، حتى انعرج في انعطافة الممر؛ كأنه اختفى للأبد؛ حاملا على كاهله همومه، بل هم مجتمع بكامله.

قلت مُحدثا نفسي؛ التي غدت بعد كلامه أسيفة: «أنا كذلك سأتقاعد بعد زمن، ولا أستبعد أن أكون في يوم ما أب لآبنة؛ على عاتقي تربيتها وتعليمها.

عرفتَ الآن لماذا دمعت عينا ذلك الرجل، فلم تعد تعجب؛ فمن أجل ابنته كاد أن يبكي، ويُكفكف دموعه.

سارق في المسجد

قطرات من ماء الوضوء تنزل من يدي، ومن ساعدي؛ كنت قد غرفت بكفي اليمنى غرفة الماء الأخيرة، ودعوت الله أن يجعلني من التوابين ومن المتطهرين، قمت، وثنيات كمي قميصي على عضدي، ويدي اليسرى تمسك بفردتي حذائي، فأحتاط؛ فقد أسهو؛ وتنصرف يدي عن ذلك في غفلة مني، ويصيب ملابسي شيئا من حذائي، وأنا أريد أن تكون ثيابي خِلوا من الدّرن، وسرت وئيد الخطى، لا أعجَل، وملأ الإيمان القلب، لو تصفحته في تلك الساعة لما عثرت به على آثار هم؛ أو غيظ، أو فظاظة؛ تجده سمحا؛ مُستغفرا؛ تُلفيه رحيما.

سكينة، وصمت، وهدوء، ورزانة، جميع هذا شامل للمسجد؛ لايُخدش. قدماي تطآن صوف الزرابي؛ كان كثا، وناعما، وقد ارتفع صوت بأن: «قد قامت الصلاة؛ قد قامت الصلاة؛ الله أكبر؛ الله أكبر...»؛ وسعى الوافدون إلى الجامع؛ إلى تسوية الصفوف؛ إلا واحدا أدبر؛ وعاد، ثم انحنى، ومد يده إلى بذلة، فارتداها، ومضى خارجا من المسجد؛ كانت عيناي قد شاهدتاه، وانصرفتا عنه؛ لم أفطن وقتها، ولم يُثر عَجَبي، ولا سؤالي عن ما شذ منه من فعل. قال قائل فيما بعد: «لا يُظن به إلا أن قد حصل له نقض في الوضوء، فانسحب، يريد أمكنة الاستنجاء والوضوء، فلا استحياء في ما سُن من فرائض الوضوء».

كان المسجد (مسجد السّنة)، وكان وقت الصلاة (صلاة الظهر)، وكان الشهر (شهر رمضان)؛ الذي أنزل فيه القرآن، وكان السارق (سارق البذلة)؛ تخفف منها صاحبها، واستودعها أحد أعمدة الجامع؛ ريثما يُحيِّي المسجد صلاة، ويؤدي صلاة الظهر صلاة، ويلتفت إلى يمينه وشماله بالسلام، ورحمة الله تعالى، ويصلي ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم، ويقوم للنافلة بعد ذلك، فما هي الواقعة؟

لـ(ثانوية مولاي يوسف) بابها الرئيس؛ على شارع، وساحة مُعشوشبة، ولـ(جامع السنة) بابه الرئيس؛ على نفس الطريق والساحة، ويتخذ طلبة تلك الثانوية من ظلال أشجار هذه الساحة استراحة؛ في بعض الأوقات؛ لاستذكار الدروس، والاستمراح، والتَّنكيت، ويؤم البعض منهم المسجد، وهم فتية دون السابعة عشرة، وعادتهم أنهم يدخلون الجامع؛ جماعات، أو وحدانا؛ يتوضأون، ويعمدون لعمود من أعمدة الجامع؛ فيُراكمون على جوانبه محفظات كتبهم، وأدواتهم المدرسية، وبذلاتهم، وأحذيتهم.

بعد صلاة ذلك اليوم تحلقوا حول زميل لهم، يسألونه عن خطبه المفاجئ له، وعلى وجوههم وجوم، ويأس، وأسى، فقد سُرقت بذلته، والسارق ذلك الذي خرج من بين القائمين إلى الصلاة، وانحنى، ومد يديه إلى بذلة لبسها، وسار إلى باب الجامع خارجا.

دنوت من الفتى، وهمست في أذنه قائلا: «أريدك في شأن البذلة».

نظر نحوي؛ فأشرت إليه بأن يتبعني، انفردت به في مكان قصي، وقلت له:

- بذلتك سرقها سارق؛ أنت رفعت يديك حذاء أذنيك، وكبرت في خشوع، وهو امتدت يده إلى البذلة؛ ارتداها واختفى؛ رأيته يفعل ذلك، وأنا في طريقي إلى صفوف المصلين؛ لا تحزن فإن الله مع الصابرين».

لم ينبس ببنت شفة، وعاد إلى زملائه، فحدثهم بما أسررت له؛ دون أن يدري أني كتمت عليه شيئا آخر؛ أن من المتسولات اللواتي يقفن بباب الجامع لاستجداء من يغادر المكان، من يعرفن السارق.

جُثَّة في البحر

غاب قرص الشمس، وانطفأ ما بقي من دائرته المضيئة، كان يشع نورا في كبد السماء؛ يبسط ضياءه؛ كقنديل في مشكاة؛ معلقة في الأجواء. يهتدي به ذووا البصائر المتفقهة، والأبصار المحدقة في الفراغ؛ ينفلت وراء البحر؛ على حين غفلة منهم جميعا، فيزحف الليل؛ يجر أستار ظلمته الحالكة، ويروح الكائن الحي العاقل يَخبط خبْط عشواء؛ يلتمس قبسا من نور يستضيء به؛ يتبين به نهاية طريق، يُجاهد رؤيته المحدودة عند أفقه؛ فلا يُبصر غير غياهب الليالي، يستلذ أحلامها الجميلة، أو يمقت ما يريعه منها. تخطف قدماه عثرات المسالك الوعرة؛ سقطات عُمُره؛ تتجاذبه سعادة هذه الحياة وشقائها؛ يُلاطم الموج مركبا خشبيا؛ يمتطي شبحُه سطحَه؛ فتتداخل حركات أطرافه؛ يميل جهة اليمين، وجهة اليسار؛ يُقبل ويُدبر؛ يترنح في وقفته؛ يعلو، وينخفض، يمضي، ويروح، يهوي، ويقوم، يقبض بيده على حاشية مركبه، تميل به ميلانا، تفقده الاتزان، والوطء المحكم.

تجري الرياح بما لم يكن يحْسِبها به؛ يُضيء قبضة يده وميض برق، ويُمزِّق حجاب صمت أذنيه دوي رعد. وابل من الأمطار الغزيرة يُبلله من قمة رأسه إلى أخمص قدميه؛ لا يدع موضعا من جسده إلا ويتسرب إليه الماء المنهمر؛ يغسل جبينه من عرق؛ يسيل من مسام جلده؛ جبينه يعكس حمرة الغروب؛ حمرة تتلاشى أمام زحف سواد الليل.

من رحاب الشاطيء حيث الصخور الناتئة، وحفنات من الرمال الخشنة، والناعمة؛ انبثق مولده؛ قمّطته أعشاب أغوار البحار، ولما صلُب عوده، واشتد ساعداه عزم على الرحيل؛ رحلة كسب الرزق؛ رحلة صيد ليقتات بها من حصيلة شَركِه المخروم؛ في أزمنة تاريخه الطويلة؛ يُدشن في كل حقبة؛ في كل عصر منها، وفي كل فترة زمنية؛ كفاحه المرير؛ من أجل لقمة

خبز يبيسة؛ يُلْقمها لأفواه تتلظى بالجوع؛ يضع زوجه -طرفه الآخر-راحة يده أعلى جبهته؛ جبهة أكلتها الشيخوخة؛ يترقبه؛ ينتظر أوبته؛ يتجرع رذاذ الموج المندفع، ويغلف جسده النحيل رداء حزن قاتل.

يتشبث بسار سفينته؛ سفينة حياته، فيَخذُله؛ لأنه هو الآخر يفقد زمامه في الخِضَمِّ الهائج؛ فيمضي في صراع مع هزات الموج العنيفة؛ يُنازِل لُجُجه؛ هي بيئة البحر في عراك مع الإنسان، يبغي إخضاع طبيعتها لإرادته؛ وهي بين ذراعيه تقاوم بعنف، تدفع عنها شَرَّه؛ وكأن لسان حالها يقول: «الشر بالشر، والبادي أظلم»؛ لتصون عذارتها من عبث ضحكه.

بالأمس نصب حِبالته، وتركها تمتليء بما يجود به البحر من عطاء، فيُطبق بيديه القويتين على حبالها، وصار يجذب؛ ويجذب، ويجذب؛ حتى يُدمي القُنَّب أصابعا لينها الماء المالح. تخونه قوته في لحظة شدٍّ أخيرة؛ فتنفلت الشبكة الثقيلة من يديه الخائرتين، ويطويها الموج في تلاطمه. يعتريه السُّخط والتبرّم. يملأ الغيظ صدره؛ تتجهم ملامح وجهه؛ يُكشر عن أنيابه النّخرة؛ ثم يضرب الهواء بقبضة يده.

يُعنِّفُه الواقع، فيَعنُف بكيانه. يقتحم الخطر؛ يستهزئ بالموت؛ ما دام الموت في سبيل لقمة العيش؛ يُحيط به فجأة الرَّدَى من حيث يعلم علاماته؛ حين تتقطع به السبل؛ يهز رأسه هزة خفيفة، ويكِر بنظرته إلى الوراء؛ حتى تلوح له آيات الشاطيء البعيد؛ هناك ينجو بلحمه؛ من أن يصير طعمة سائغة لسمك القرش، يستحضر حينئذ شعورا فُطِر عليه؛ وهو بعد نطفة في رحم أمه؛ إحساسه بقدرة خارقة أوجدته على ظهر هذه الأرض؛ قدرة خالقه؛ فيدعوه النجاة؛ يرجوه دواء لنفسه المكلومة؛ يُعيد الكرة؛ يُشمر ثوبه الممزق عن عضلات ساعديه المفتولة، فيجذب، ويجذب، ويجذب، ويجذب؛ حتى يندحر إلى الوراء، وأطراف شبكته تمتد أمام عينيه الثاقبتين؛ فتُخالجه نشوة الكسب؛ يفترّ ثغره عن آبتسامة الظفر؛

فيمضي بكل ما أوتي من مهارة فائقة؛ في فك خيوط المصيدة المتشابكة؛ لم يجد سمكا!؟

كتلة لحم منبطحة؛ لا يستقيم شكلها؛ سأل في نفسه قائلا: «هل هي جثة دلفين؟ ماذا ترى عيناي؟ هل هي جثة كائن حي؟»؛ أجاب نفسه بعد أن تيقن مما نظر إليه: «بل هي جثة كائن ميت؛ جثة طمس الحوت معالمها؛ أَهي لذكر ، أم أُنثى!؟».

هي لجثة إنسان وكفى؛ جثته هو الإنسان؛ اِنتشلها هو الإنسان. أدرك بعدئذ أنها لا تكون إلا جثة صياد مثله؛ صياد الأرزاق؛ ولو بجثته في أعماق البحر.

حدث نفسه: «أنا هو ذا الصياد».

صاح بكل ما أوتي من قوة صوت في أرجاء البحر:

– أين شاطيء النجاة؟

استمر يصرخ؛ ينادي ربَّه؛ خالقه:

– يا الله إني غارق؛ غارق لا محالة من ذلك؛ إني أرى جثتي هذه؛ في قرار هذا البحر المحيط.

وتهاوى في جوف المركب مهدودا.

الغَيْث

اِسْتند بظهره، وهامته على جذع شجرة؛ تشبثت أوراقها اليابسة بالأغصان، تأبى في عناد أن تغادر الفرع الذي نبتت فيه بذرتها، وتساقطت أُخرى؛ لم تستطع أن تقاوم الرياح الهوجاء؛ التي اقتلعتها اقتلاعا، وحملتها إلى مكان ما من هذه البسيطة. ثنى ركبتيه، وتركهما تميلان حيث يطيب لهما الاستقرار؛ فلا تُجهِدانه حملا؛ ترك عصاه الغليظة تأخذ مكانها بجانبه الأيمن؛ كأنه ضاق بها ذَرْعا؛ في الوقت الذي أصبحت فيه لا تُجدي نفعا، فلا غنما يهش بها عليها، وهي كأنها تنطق فتقول:

– دعني وشأني، فقبضتك خنقتني، وضيَّقت علي تنفسي.

ينظر بعينين مغمومتين هنالك بعيدا؛ حيث التبطت بيوت القرية بسفح التل؛ كأن القوم نحتوا حُجُراتها وغُرفَها؛ في طبقات الصخور؛ فكانت تبدو؛ وكأنها من ديار قوم النبي صالح عليه السلام. برز صدغاه، وغار قذاله، واحترقت بشرة وجهه، فأخذت لونا بُنّيا داكنا، وخُطَّت التجاعيد على جلد جبهته؛ التي تُصدر بريقا، تعكس شعاع الشمس؛ هذه الشمس التي استقرت في علو السماء؛ باسطة ضياءها على أديم الأرض، تُدفيء الحرارة الصادرة من شواظها الجو؛ فتزيد من حره، وتُضاعف من قيظه؛ فيتصبب جسده عرقا؛ ذلك أن الشجرة اليبيسة لا تمسك عنه حرًّا. قصد مقامها؛ دأبه كل هذه السنين المتقهقرة من عمره؛ لينعم بظلها؛ فلا تُظلله في يومه هذا؛ كما تظلله كعهدها منذ زمن بعيد.

هل يتملكه وهم أنها تنعم عليه؛ بحنان ظلها كما كانت؟ أم أنه الحنين شده إلى الأيام الماضية؟

لكم كان يتوق إلى هبَّة نسيم ظلها البارد المنعش!

تُراها أخرفت؟ هل اصفرت خضرتها؛ الزائلة من صفحات الأوراق؟

هو الماء نَفِد؛ اِمتصته الجذور، وتبخر من الثَّرى، ولا أثرا للمطر ثانية؛ يبللها في إحدى كراته، ولا آية من غيوم دكناء؛ تغطي وجه السماء؛ تمطر ماء؛ إلى حد يزيد فيه الماء عن كِفَايته.

اِمتدت الحقول أمامه جهة الغرب، لا يحدها البصر؛ بقدر ما تحدها أراض هي الأخرى ضاربة في القَصِيّ حيث الأفق؛ هذا الذي تحاول عيناه أن تتبين ما يجول خلاله. لا شيئا غير الوَهْج الصادر من الأرض الساخنة؛ تُلاعبه الرياح الخفيفة؛ في الأجواء القريبة؛ فيُخيل إليه أنها تحترق، وهو لا يشك أنها احترقت بالفعل.

شرارة متطايرة من فرن اِرتفع أُواره؛ كفيلة بأن تُصيِّر الغابة النابتة هناك خلف التل؛ إلى رماد؛ تذروه الرياح في هبوبها؛ يتمثل له ذلك دون أدنى ريب منه. يجول بعينيه في أرجاء السَّماء؛ كانت صافية الأديم؛ ضاربة في زُرقتها، لا تُنذر إطلاقا؛ بعاصفة من عواصف الجو؛ حين يتحرك الهواء فيصبح ريحا؛ يدفع السحب الثقيلة دفعا؛ من السواحل في اتجاه عمق اليابسة؛ لتُمطر.

كانت رائحة التراب المبلل؛ قد تسربت إلى أنفه؛ لا؛ هي جثة نَعْجة لم يبق من لحمها النَّيء؛ غير ديدان متحركة نهمة؛ وهيكل عظمي لم تنل منه، شم رائحتها النتنة؛ فضاقت بها أنفاسه الصاعدة والهابطة. ماتت منذ أن ندر الماء في الآبار، وجف في التُّرع. لم يخلف جريانه في الأودية سوى الحجارة الغليظة، والدقيقة، وتَشَقق الطين في حواف البحيرات. اِستند إلى عصاه، وقام يَنْفُض التراب من أثواب جلبابه وسرواله، متجهم الوجه؛ ساخطا؛ يبصُق مرة بعد مرة؛ يُطبق براحة يده على أنفه، وابتعد عن المكان بخطى حثيثة؛ تُطارده الرائحة الكريهة. كان لا بد من أن يجرف طوفان المياه الجارية الشاة النافقة؛ لو نزل المطر مدرارا، وتورق تلك الشجرة، وتنمو الحشائش بالقرب من جِذعها النخر؛ لو تشربت التربة قطرات الماء المنهمر.

وسار عبر المسرب التَّرب نحو القرية؛ كان في مثل هذا الوقت منذ أمد طويل؛ تغوص في أوحاله حوافر الأنعام والدواب؛ وهي في رحلة رعي إلى المروج الخضراء؛ حيث العشب الرطب. أدار رأسه إلى هناك؛ لا كلأ؛ غير الصخور والحجارة، والسكون الرهيب؛ يمزق حجابه عواء الكلاب الهزيلة؛ تموت جوعا؛ تُعلن رهبة الأمكنة الخالية. طفق يحدث نفسه حديثا أسيفا: «اِنحبس المطر، وهلك الزرع والضرع، والنساء يستأصلن جُذور نباتات برية؛ يملأن بها بطونهن الفارغة؛ بعد غليها في قُدور من الطين المشوي، والأولاد؛ صبية وفتيان؛ يلتهمون أرغفة؛ من عجين طحين السوق الأسبوعي؛ خليطه دخان الكوانين، ويحتسون الشاي، ولا وجود لصحون المرق على الموائد».

تكاد كلمة (العقاب) أن تزل من لسانه، لم يعد يطيق نطقها، ولا حتى سمعها؛ لكثرة ما رددها في إلحاح فقيه القرية في هذا الصباح، جلس يُذكر الغادين؛ بأن ما حل من جدب في الأرض؛ هو عقاب من الله عز وجل؛ عِلّته أنهم لا يستحضرونه في جميع شؤونهم الدنيوية، وانصرافهم إليها انصرافا؛ دون القيام بما فرضه من صلوات، وزكوات، وصدقات، وأنهم آثمون ومذنبون، تمردوا على نواهيه وأوامره، حَرِيّ بهم أن يسترجعوا ذكره؛ في تضرع وتوسل؛ عسى أن يستجيب لدعواتهم، فيُحيي الأرض بعد موتها.

تحتضنه على حين غرة منه؛ البيوت المشدودة ببعضها البعض؛ كأن لحاما أحكم انطباقها، وأزقتُها، ودروبُها الخالية؛ لا يُسمع فيها غير مواء القطط الشريدة؛ يتردد صداه فوق السطوح، وفي داخل الدهاليز. يستعيذ بالله من نهيق دابة مُقيدة في ركن ما؛ يصك أغشية أذنيه. تبدو الحُجُر خاوية؛ فهو يدرك أن أربابها تركوها وهجروا في هجرات لا يعودون منها البَتّة؛ «قست عليهم ظروف الجفاف بكل قسوته»؛ هكذا كان يتحدث، أتى على الأخضر واليابس، وضرب القرى، والدواوير، وخيام الرحل، وتعطلت سبل

العيش. يُغلف الأسى والحزن قلبه؛ تدمع عيناه؛ فتغسل العبرات في فيضانها خديه؛ من ذرات التراب العالقة. يرنو إلى الأبواب الخشبية الموصدة؛ يقف شاخصا ببصره في عجوز؛ بلغت أرذل العمر؛ تتضور جوعا؛ ساقاها الواهنتان لا تحملانها شبرا؛ إن عزمت الرحيل. تنظر إليه بغير اكثرات. يُحيّيها فلا ترد عليه التحية. يُحيك خيوط مستقبل لا يستقيم رداؤه، ويهيم في تصورات وخيالات؛ لا حصر لها ولا حد؛ فلم يجد بدا من أن يحزم هو الآخر حُزمته؛ ويرحل كما رحلوا، وقد يُكتب له أن يعود، أو لا يعود بالمرة؛ سيترك أهله تحت رحمة الطبيعة؛ هي التي ستُطعمهم من جوع؛ إن كان لديها ما تُطعمهم به، وإن لم يكن؛ فتكون ميتتهم ميتة القدر، ويواري سوءاتِهم آجور الطين المتهرّيء، وتُطمر قبورَهم السقوفُ والحيطانُ المنهارة، لتُصبح القرية مقبرة للأموات؛ بعد أن كانت مساكنا يقطنها الأحياء، ويطويها النسيان في أزمنة التاريخ، وتصبح آثارا دارسة ليس إلاّ. يرفع قدما، ويضع أخرى في ذلك الاتجاه نفسه. يمشي الهوينى في طريق شقته حوافر الدواب، وعجلات العربات، ومهده وطأ الأقدام؛ سلكه من سبقوه إلى الهجرة الأبدية. يعبر الهضاب، والتلال القفراء؛ ذلك المسلك تركة حركة دائبة؛ خلال زمن ولى؛ نحو الطريق الآخر المعبد بالحجارة المرصوصة؛ والأسفلت المضغوط، تطويها وسائل نقل ذات المحركات الانفجارية؛ ليلوح بيديه إلى سائق؛ يمسك بمقود دابته الميكانيكية في احتراس، يرجوه رجاء من ضل السبيل؛ ليحمل ما يتبقى من عضلات جسده؛ لو امتصت البراغيث دماءها، وعبَّ منها البعوض؛ لأضحت قِدِّيدا مجففا على حبل النَّشير، وعظاما بارزة تصلح كعينات للتأملات البيولوجية، إلى ذلك البنيان المتطاول؛ إلى تلك المدينة، تغدو أشباح في دروبها المضيئة، وتروح؛ ليغرق هو الآخر في ضوضاءاتها الفارغة، واكتظاظاتها العشوائية؛ إلى أن يقضي الله في أمره؛ فيجعل له مخرجا.

يمضي مُقتفيا آثار خطته، أمله كبير في أن يجتازها بسلام، لا يحيد عنها، ولا يبرحها، لم يعد شيء ما يُلفت اهتمامه في هذا الخلاء الساكن؛ الذي يُنذر بالموت؛ فثمة نظرة جهة اليمين، أو جهة اليسار، أو أخرى إلى الوراء، تتراءى له أشباح في السراب، يتوعد الموت كل كائن حي؛ ما زالت تسري روح في جسده الواهن، لا يُخلي سبيله حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة. يستبد به العياء، وتخور قواه، وتتورم قدماه؛ من فرط السير الطويل؛ لم يشعر قط أن ساقاه منفصلتان عنه انفصالا؛ لم يعقل مرة أن ذراعاه مجرد أشلاء متدلية؛ تشدهما لحمة، أو لحمتان إلى كتفيه؛ يحس كأن حلقه انكمش على نفسه، وكأن خشونة ألمت بجداره؛ فقليل من الماء يُبلل بها حنجرته، وكأن أمعاء بطنه التصقت ببعضها التصاقا، فكسرة خبز يدسها دسا في معدته الجوفاء؛ تبعث فيه الحياة مرة أُخرى.

هيهات! إنه بين الحياة الموت، فالرَّدى يزحف في هدوء؛ لا يثير ضجة، ولا صخبا، يستنفره ملاك الموت، ليضمه بين يديه. يلمح ببقية ضوء عينيه -في تلك الجهة- غيوما تبسط ظلالا كأنَّها دُجى الليل، وتزحف في تكاثف، وتزاحم، وفي تكاثفها يلمع البرق، فيُضيء له مقدار خطوة من الأرض؛ التي يَضرب فيها، ويُجلجل الرعد؛ يُزلزل كيانه المحتضر؛ لم يبق من حركاته غير نبضات قلبه الأخيرة؛ ما لبث أن هوى على الأرض، في غير ترنح من وكزه وغد، ولا أنين ألم من طُعن في بطنه؛ جثة هامدة ساكنة. لمست هبة ريح باردة وجنتيه الذابلتين، وداعبت قطرات؛ تسقط الواحدة بعد الأخرى شعيرات رأسه، صارت بعد برهة مطرا غزيرا، ثم نطق بصوت مُتَحشرج:

- أغيث أرى؟ أغيث أسمع؟ أغيث يُبللني؟ يا الله إنَّه الغيث؛ إنه الغيث!

ملأ الوحل فمه الفاغر، وتسربت قطرات الماء إلى حلقه؛ فغادرته الروح، وغمر السيل الجارف؛ المنحدر من فوق تلك الجبال العالية جسده، ووطِئَته

حمولته من الحصى المتدحرج، وأتربتها المنجرفة من أعلى سطوح السفوح؛ ممزوجة بحفنات من قطع أخشاب السقوف، والقش، والقصب، وأشواك زرائب الأنعام، هي مكونات نعشه؛ فأُقبر، شيّعه ملك الموت.

كان فردا من جمع ذلك الملأ، آنام تلك القرية البائدة؛ كان ذلك الجمع يسود بأعراف تُحكم بيعه وشراءه؛ ثم باد في العَشِيّ، أسدل الظلام عليه ستارا؛ يميطه شروق شمس اليوم التالي؛ عن بقايا جدارات، وأعمدة، وزوايا، وقد غطتها طبقة من أتربة طوفان البارحة؛ ينمو العشب، وتورق الأشجار، ويزهر الريحان، والياسمين والأقحوان، وشقائق النعمان؛ فوق قبر ذلك الجسد المدفون؛ الذي مات بالأمس جوعا، فتقطِفها أنامل راعية صبية؛ تسري في شرايين خديها المتوردين؛ دماء عُذرية. ينفرج ثغرها عن ابتسامة مشرقة، وتميل بوجهها صوب الأرض، وقد رأت كيف أعاد الغيث إليها عطاءها، وسخاءها.

صاحب مَطْعم الطريق

منذ أن عمل في الإدارة، وهو لم يعد يعرف من طرق المدينة غير واحد؛ هو ذلك الذي يربط بين بيته، والبناية التي يوجد في أحد حجراتها؛ التي تتالى في ممراتها؛ المكتب الذي يجلس خلفه، وهو قد اعتاد على ما يحتله من ملفات من الورق؛ موضوعة إلى يساره؛ بترتيب وعناية، وحاسوب إلى يمينه، وإذا ما سلك طريقا آخر، فهو إما لتعذر المرور من طريقه المعتاد، أو حاجة هو، أو أحد أفراد أسرته في أمَسِّها؛ في يوم من أيام عطلة نهاية الأسبوع، إلى أن كان ذلك اليوم الذي تذكر في إحدى ساعات ليله المتأخرة؛ أياما مضت كان حُرا فيها، في بُروحِه لبيت الأبوين، والتمشِّي في أي طريق، وفي اتجاه أي مكان، والعودة إلى حجرته، وحسبه أنه طاف دنيا شارع المتاجر والمقاهي، وشارع تحف به أشجار بفروع مورقة، وأرصفة مُعشوشبة، وسار في شاطئ صخري أو رملي؛ يخلو إلا من القليل من الناس؛ وقت غروب الشمس، فتاقت نفسه إلى مغادرة منزله في وقت مبكر؛ لا لدافع؛ إلا أنه أحب أن يقوم بذلك، وبحرية، والسفر في طريق، وليس أي طريق، فهو الذي يمتد، أو يكاد بموازاة مع شاطيء البحر، فينتعش من يمشي فيه؛ ببرودة نسيم البحر.

إلا أن فرقا كان بين أيام خلت كان يتنقل فيها راجلا، وبين الآن؛ فهو يركب السيارة، التي أتاحت له المضي في مسافات طويلة، وإلى أي مكان يُعجِبُه، ولم يكن يدري من قبل أن سلوك طريق واحد قد لا يُتيح لك الالتقاء بوجوه أُناس كثيرة، منها ما كنت على معرفة قديمة بها، وسلوك طريق آخر أو طريقين؛ قد يُمكِّنك الالتقاء بأشخاص، وإن غيرت سنوات العُمُر ملامح وجوهها، وأحالت سواد شعر الرأس، واللحية الفاحم إلى بياض شيب، إلا أن علامات ظلت على حالها؛ تُعرِّفُك إليهم.

فما هو ذلك المكان الذي أتاح خروجه في ذلك اليوم؛ على غير عادته؛ الوصولَ إليه، ومن هو ذلك الشخص الذي تعرف إليه بعد مضي أكثر من ثلاثين سنة؟

سواء كنت تريد أن تتعجل القيادة في ذلك الطريق الشاطئي، أو تتمهل سياقة مركبتك فيه، فإن علامات تحديد السرعة؛ تتراوح بك ما بين الأربعين والستين والثمانين، فكان هذا يُناسب مزاجه في صباح ذلك اليوم، فليس هناك ما يستعجله، كما عوّدته واجبات العمل، وواجبات البيت، فكان يقود دابته الميكانيكية؛ مُتمتّعا بانسيابها به على طريق ذات أسفلت أسود ناعم، لا يُسمع لاحتكاك العجلات به صوت؛ إلا في بعض أجزاء منه؛ تآكلت بفعل ما، والاستماع إلى موسيقى هادئة؛ تصدح من المذياع، وإلى موج البحر الزاحف على الصخور، وعلى الرمال، والنظر من حين لآخر إلى ما يظهر على جانبي الطريق؛ من أراض مزروعة، أو بساتين عامرة بالأشجار المثمرة، أو بيوت كبيرة، أو(ڤيلات) جميلة البناء؛ بناها ميسورو الحال.

وهو يَهبُ نفسه لطبيعة الطريق عن طيب خاطر، ويرتمي في أحضان ذلك الجو الذي تُضِيئُه إشراقة الشمس، وما تزال حرارته معتدلة؛ إذ شد نظره وجذبه بناء بجانب الطريق؛ فُتحت أبوابه، ونوافذه من كل جانب، وشُرِّعت دفاتُها أمام طقس الساعات ما قبل الثانية عشرة الرطب، وطواجن بَلدية موضوعة في خط مستقيم على مِجْمر قصديري مستطيل؛ يرتفع منها بخار ما يُغلَى فيها من مرق، وما يُطهى فيها من خضر ولحوم؛ فعرف أنه مطعم، وفي الجانب الآخر من الطريق موقف؛ يتسع لأربع سيارات لا أكثر، وما بعدها تنخفض الأرض، وتتسع لموائد بلاستيكية، ومظلات تقي من يجلس؛ يتناول مما نضج في طاجين من ذلك المطعم؛ من حرارة شمس شهر

يونيو، ويُمتع بصره بتلال من رمال الشاطئ؛ تبدو هنالك بعيدا، وما بعدها؛ حيث تمتد مياه البحر إلى الأفق.

فما أمتع الجلوس في هذا المطعم المنعزل، والبعيد عن ضوضاء المدينة، وصخبها! وما ألذ ما في طبق يُتناوَل على موائده المستديرة والمستطيلة! ولم يكن يقطع سكون المكان، وهدوء الحركة داخل المطعم إلا صوت مرور سيارة أو شاحنة، فخفَّض السرعة، وأدار المقود جهة اليمين، وترك سيارته تجد مكان وقوفها، وترجل مُستكشفا بالتدريج، وتآلف واجهة المطعم، وعمال هذا الأخير الذين لم يكن يتعدى عددهم ستة، وطالت قامة أحد بينهم؛ ما إن خطا قاطعا الطريق حتى ألقى عليه نظرة حادة مُرحّبا به، ومُخيِّرا إياه بين أن يجلس بين جدران المطعم، أو في الحديقة الخلفية الواسعة، والمفتوحة على سماء صافية زرقاء، فعرف أنه صاحب المطعم، ونادى هذا آمرا من ينظف المائدة، ويُعدل من ساق المظلة؛ بحيث تُلقي هذه الأخيرة بظلها على أكبر مساحة من مكان الجلوس، فشكره وجلس باحترام، وتقدير للحفاوة، وطفق يدير رأسه إلى جانبيه، وإلى الخلف؛ ليمنح لعينيه فرصة مشاهدة قفص باتساع حجرة صغيرة، وبعُلوّ يتعدَّى قامة رجل طويل؛ يسكنه زوجان من طائر الطاووس ودجاج، ودِيَكة، وفي ركن بعيد على يمينه كلب مربوط؛ قريبا من مسكنه الخشبي ذي السطح الهرمي؛ ينبح بين الفينة وأخرى؛ ناصبا أذنيه الطويلتين، ومُتصفّحا بنظرات حارسة وجوه القادمين.

عاد ناظرا أمامه، فرأى مالك المطعم يقصده مُبتسما، فبادله بالمثل، وقال:

– مرحبا بك مرة أخرى؛ أي نوع من الأطباق تشتهيه في هذا اليوم، وفي محلنا هذا الذي أرجو أن ينال رضاكم؟

أجاب، وهو يحاول أن لا يظهر من أنه لم يتعود الجلوس في المقاهي والمطاعم:

– في الحقيقة ما أمتع الجلوس في مطعمكم؛ أريد طاجينا باللحم.

ولم يزد حرفا واحدا من طلبه هذا، وظل يحدق في عيني صاحب المطعم مدة وحدات من الدقائق، ويجول بعينيه في صفحة وجهه، ويُدقق النظر في ملامحه، وقد استرجع صورة من الماضي البعيد؛ لم تُفارق مخيلته قط، كما لم يتركه نفس السؤال عن الذي وقع حينذاك؛ يُعيده في ذهنه منذ ذلك التاريخ، ولا يمكن أن يجد له جوابا.

فحاول مرة ثانية استحضار وجه ذلك الشاب؛ الذي كان يركب عربة خفيفة من عجلتين، ويمسك بالأعِنّة؛ حاثا الحصان على الركض بالسوط الطويل، ليجري بالعربة الحديدية بأقصى سرعته، ويجلس بجانبه على المقعد الجلدي الطويل شاب آخر في مثل سنه، وإن نسي أشياء، فلن يغيب عن ذاكرته خوف مريع ينبعث من عيونهما، وتأهّبهما الظاهر إلى فعل خطر، وكان قد التفت الشاب المرافق إلى الوراء مرة واحدة؛ ليرى ما إذا كان أحد يتعقبهما، وغابا؛ لا يسلكان مِسربا ممهدا أو طريقا، وإنما قاطعين بلا هوادة الأراضي المحصودة، والحقول المزروعة.

كان قد مر به هذان الراكبان للعربة السريعة، وهو واقف خلف السياج الشائك؛ المحيط بالاستغلالية الفلاحية التي كان أبوه يحرسها، وكانت في ملك أحد الأغنياء، كان سنه آنذاك أربعة عشر عاما، وكان قد صنع من القصب النابت في جانب من البستان مزمارا، بتشكيله بسكين قديم ذي مِقبض من العظام، وينفخ في أنبوبه مُزمّرا بانتشاء تحت ظلال أشجار وارفة الأغصان والأوراق، في حر شهر يونيو.

ولم يخلف ذلك الحوذي وصاحبُه وراءهما غير صوت تكسير الأغصان اليابسة؛ سَرعان ما توقف ذلك الصوت، وعَجَاجة من التراب أثارته العجلتان المعبئتان بالهواء المضغوط، والسريعتان، ولم تمر خمس دقائق حتى ظهر رجلان يكبران سنا عن الشابين؛ يمتطيان دراجة نارية، ولم تجد عجلتا

هذه الأخيرة أرضا ممهدة لتستقيم قيادتُها؛ للذي يُمسك بالمقود، فكان هذا غير ثابت في يديه، فكان سيرها متعثرا، وكان تعجلهما هستيريا؛ لم يُجْد نفعا، فتوقفا، وسألاه:

– هل مر من هنا شابان يقودان عربة؟

لم يكن على معرفة حتى ذلك الوقت بخطورة ما يجري، فأجاب بتلقائية، وسذاجة الغير المدرك للأمور:

– نعم؛ مرا منذ قليل.

وسأل أحدهما قائلا:

– في أي اتجاه ذهبا؟

أجاب بإشارة من يده إلى الاتجاه الذي اختفيا فيه الشابان، وإن حاول راكبا الدراجتين اللحاق بسرعة، إلا أن مُحدبات، ومطبات الأراضي المحصودة والمزروعة؛ حالت دون انطلاق الدراجة بهما كما ينبغي، وظلا يُجاهدان حجارة، وحصى، وحفر التربة المحروثة؛ بقليل من النجاح.

لم يُخف القابض بمقود الدراجة حقيقة ما يحدث، فقال له:

– إننا نطارد هذين الشابين، لأنهما اقتحما على أحد مُلاّك الضيعات القريبة من هنا بيته، وسطوا على مبلغ كبير من ماله، وقتلاه، وهربا راكبين عربته، ويكونا بهذا سارقين للحصان أيضا.

وجرى آيِبا إلى الداخل؛ باحثا عن أبيه؛ وجده بين فروع عروش كروم يُقلِّم فروعها، فأخبره بما رأى وسمع، فتوقفت يدا الوالد عن العمل، وظل المُقلِّم مُتعطّلا في راحته، ونظرت عينا الكهل برزانة إلى ابنه، والذي تفوه به، وبصوت هادئ هو:

– لا تعود مرة أخرى إلى الحديث في هذا الأمر، ولا تُخبر به أحدا؛ إننا لسنا في مأمن في هذه الناحية الخطرة.

فأُلجِم لسانُه، وتراجع، وقد أدرك، ووعى بخطورة ما شاهد، وسمع.

كان هذا قد حدث منذ عشرات السنين، ولم يخطء، فصاحب المطعم وهو الآن شيخ، هو ذلك الشاب القوي البنية، والمجيد في إرسال لجام فرس العربة عاليا؛ هامزا الدابة.

وقال بينه وبين نفسه، وهو ما يزال يسترق النظر إليه؛ كلما ظهر يتردد بين أركان مطعمه، والمطبخ؛ مُلبّيا طلبات الزوار من حين لآخر «... ونفّذت أمر والدي، فلم يغرِني لساني بلذة الثرثرة في ذلك الموضوع، الذي لم تكن تُحمد عُقباه؛ في ذلك الزمن على الأقل».

وهذا أحد السارقين الهاربين؛ ما يزال حيا يُرزق، ويُدير مطعما فخما في ملكه، ويخطر في مشيته؛ آمرا في رَقِيقِه؛ وزاجرا، وناهيا إياهم، ولا يُهمل له قرار يتخذه في الحين، ولا يتقاعس عنه أحد ممن يخدمون المُطعَمين؛ اِجتاح هذا الكلام خاطره، واحتوت عيناه الجُدُر، والسقوف، والأرض الرحبة، وآب متحدثا في داخله «هل هذا من ربح استثمار ذلك المال المسروق؛ مال ضيعة المقتول؟ وقد مر على ذلك الحادث زمن، فماذا تتالى عنها من الأمور؟ هل طُوِي ملف البحث عن الفاعل، وإلى الأبد، منذ ذلك الوقت؟ وهَبْ أنه عرف بأن هذا الذي يجلس بين الموائد الخلفية؛ ينتظر أكله من أحد طواجينه؛ تَذكّره».

لم تغب صورته عن ذاكرته قط، فهي ظلت حاضرة في مُخيلته، وتأبى أن تتركه، وإن كان يحاول أن يمحوها؛ إلا أن الذاكرة لا أطوارا في عمرها، ولا تشيخ، ولا تموت، وأن النسيان لا ينال من أي مما وقع في ماض حياة الإنسان، لو حاكمت الذاكرة الناس على أفعالها المنكرة لفني العالم، فماذا سيفعل؟

إذا ما بُحِث عنه آنذاك، وأُلقي عليه القبض، وحُوكم عليه، ونُفّذ الحكم فيه؛ فهو قد نال جزاءه، أما إذا كان ما يزال صاحب المطعم هذا هاربا من العدالة، فهو القاصد لهذا المطعم النائي للاستجمام والاسترخاء؛ قد فتح

ملف قضية سطو وقتل؛ ظل منذ عشرات السنين مُهملا في دهاليز المجهول.

وقُدّم إليه الطاجين على المائدة، ورُفِع غطاؤُه القُمعي، وارتفع بخار الطهي، وفاحت به روائح لذيذة؛ تُحرّك شهية معدة جاعت، وأضناها أكل البيت، ومطاعم المدينة اليومي، والروتيني. لكن هل ما يزال يتوق إليه؛ بعد الذي استحضره من الماضي المخيف، والطاجين من صَنْعة هذا الرجل المتعدي؟ وما إن تناول منه ثلاث لقمات؛ حتى عافته نفسه، وأرادت الانصراف عنه، إلا أنه تابع الأكل مُكرها، حتى لا يُلاحظ عنه ذلك صاحب المطعم، فيُصبِح محط ريب، فأكل حتى لم يَفضُل في الصحن الطيني إلا بعض العظام؛ أُستُعصِي عصبُها ونُتف لحمها، فلم تنال منها القواطع، وقِطعا من البطاطس والجزر، ولم تغب عينا مالك المطعم عن الآكلين، فهو يسعى إلى الاطلاع على العلامات التي تُؤدي إليها الطواجن؛ هل هي إعجاب، ورضى، أم شيء آخر؟ وقد رأى أنه قد انتهى من الأكل، فقَدِم إليه مُبتسما كعادته، وما دام الجالس الوحيد، وبدون صُحبة، فقد جلس صاحب المطعم على الكرسي الشاغر، وسأله؛ يريد رأيه في الأكل:

– بالصحة والعافية؛ ما رأيك في طريقة صنعنا لِأُكلة الطاجين؟

حاول أن يُخفي الآثار؛ التي يمكن أن يتركها تَوصُّله إلى معرفة هذا الشخص؛ على وجهه، ويُداوره بابتسامات مصطنعة، وبالتفاتاته في الصحن، وفي وجهه هو، لكن الفضول غلبه؛ الذي قد يؤدي إلى رد فعل خطر، وظل يحدق في وجهه، ويتحقق من العلامات الباقية من شباب ذلك العهد، وهو يقول:

– ما أراه في الطاجين ليس مجاملة لك، فهو بحق لذيذ، وقد نجحت الأيدي التي صنعته في ذلك، وبالطبع هذا هو الهدف لجذب المزيد من الزوار والزبناء.

وكان صاحب المطعم، وهو الذي امتد به العمر، وله خبرة في سبر أغوار نفوس الناس؛ قد لاحظ التفرس الطويل في وجهه، ولم يفطن وقتها بما وراءه، ونطق باطمئنان إلى رواج طواجنه على جميع الموائد تقريبا؛ قائلا:

– لم أدرس فن الطبخ، ولم أتعلمه من طباخ معلم، فالذي فكرت في العمل فيه؛ هو أنني عندما هاجرت إلى إيطاليا، وعملت هناك مساعدا في عدة مهن، وحرف مدة ثلاثين عاما، ولما عدت لم أجد من الشغل المناسب، والذي يضمن مدخولا قارا إلى حد ما؛ هو فتح مطعم، واخترت له هذا المكان؛ لوجوده بجانب الطريق الساحلي، ليقصده السائقون المهنيون، والمسافرون في أيام عطلات نهاية الأسبوع، أو عطلات فصل الصيف السنوية.

لم يُضف على سيرته العملية هذه المقتضبة، أو الموجزة كلاما آخر، وكان ينظر في عين الذي أمامه، وطال تمليه لملامحه، وقراءة ما في داخله، وما يُمليه عليه عقله؛ إذ كان قد لاحظ كيف انبتّت عينا المتغدي على الطاجين فيه، ولم تَمِل إلى أي جهة، ولم تَرمش جفونه إلا مرة واحدة، فغزا صاحب المطعم شك آسر، وقام من جلوسه وقد تغيرت سِحْنته، وتحول ولأول مرة من رجل ذي ثقة في النفس؛ لا يُطأطِأ الرأس استخذاء، ولا ينهزم، ولا يخاف من أي أحد؛ إلى آخر زُعزِع في وجوده، وسار، ولم يلتفت، فقد أدرك أن هذا الذي لم يعتد الجلوس في المطاعم والمقاهي، ولم يألف الذهاب إلى الأماكن البعيدة والمعزولة؛ يعرف حكاية من حياته، والحكاية المثيرة والمخيفة؛ كان حدثها قد مر في سنوات الشباب، وفي حيوية وخفة هذا الأخير، وطيشه واندفاعه غير المحكم، ومغامراته غير المخطط لها؛ هي المرافقة للسطو والقتل؛ هذا الأخير كان يجهل فنه آنذاك، وكيفية الإقدام عليه.

وعاد إلى عمله دون أن يُلقي أي نظرة إلى الوراء، فقد كان أدرى بقراءة العلامات؛ المرتسمة على ملامح ذلك الذي يجلس إلى إحدى موائد محله، ولم يكن شكلها الغريب؛ إلا تعبيرا عن السر المخفي، وآثار إحساسه هو الرهيب؛ طفت على الوجه.

لم يعد إذن ليكون للطاجين طعم، ولم يرُق لصاحبِنا أن يستطيبه، أو يستمرئه؛ لصورة الماضي المريعة المُستحْضرة، ولم يطب له الجلوس أطول مدة، وفارقته رغبة الاستمتاع، أو الميل إلى هدوء هذا المكان، فقام على رِجلين مرتجفتين، وتائهتين، وخزر في الناس المنكبة بلذة، وفي مداخل بناية المطعم، وخطا، وهو يرجو أن لا تتبعه عينا ذلك الرجل المتقهقر إلى الماضي؛ الذي يكاد أن يضرب في جريمة البشر الأولى، وظهر أحد المستخدمين؛ ناظرا إليه بعينين قلقتين ومتحفزتين؛ قهرهما أمر صادر عن مالك المطعم، فأدرك أنه مبعوث به لأخذ نقود مقابل الطاجين، فأفرغ هو في يديه ما كان في جيبه؛ معدودا لذلك، وقطعت قدماه المسافة التي كانت تفصله عن سيارته، وما إن أدار المفتاح، وتناغمت عناصر المحرك الميكانيكية؛ حتى كان يجاري انعراجات طريق الرجوع، وحتى لا يُخطىء، أو يَغفل، أو يُهمِل ما يُسبب في وقوع زيغ عن خط السير، أو اصطدام، أو انقلاب مميت، وحتى ينسجم مع حركة التجاوز، أو إعطاء فسحة أو مُهلة للذي يتجاوزه، فإنه كان ينظر مرة بعد مرة في المرآة الداخلية، والذي لفت انتباهه في إحدى المرات ظهور سيارة سوداء اللون؛ في إطار المرآة المستطيل؛ حافظ سائقها على مسافة معينة تفصل بينهما، وسبق أن شاهد جزءا من مؤخرة هذا الطراز؛ يظهر من مدخل مَرْأَب يُحاذي المطعم؛ هل هذه السيارة تتبعه؟ هل سائقها يمشي خلفه؟ وإذا ما استمر في متابعة عودته، فسيتعرف المُقتفي للأثر على الحي الذي يسكن في أحد منازله، فما إن ظهر له من بعيد طريق في الجانب الأيمن؛ يؤدي إلى أحد شطآن

الاصطياف؛ حتى انعطف إليه، وخفّض السرعة، وألقى نظرة خاطفة إلى الوراء؛ إلى السائق، والذي لم يكن في باله أن السيارة التي كان يتبعها ستنعطف، كان يرتدي نظارة حوَّل شكلُها هيئة رأسه؛ إلى شخص غير معروف، ولم يعرف أنه صاحب المطعم إلا من شعره الأشيب، ومن ياقة قميصه العريضة والزرقاء اللون، إذن فهو يتعقبه، فتابع السير في ذلك الاتجاه بسيارته، وهو يقرأ في لوحة إرشادية اسم (مقهى الرمال الذهبية)، ثم ركَّن السيارة في صف من السيارات، وصعد دَرَجا، وجلس على أحد كراسي المقهى ناظرا إلى البحر، فالحل الذي توصل إليه، وأملاه الظرف الآني؛ هو يكفي أن يظل هنا جالسا؛ يفكر في الكيفية التي ينفلت بها من الطريق الساحلي، ويؤوب إلى بيته كما غادره؛ لا يعرفه أي أحد، من أن يتابع طريقه، فيهتدي هذا الذي يتبعه إلى حي سكناه، وهو ما يزال يستجمع تفكيره، ويتغلب على خوفه، ويُلم بما يحدث الآن؛ إذ طرق أذنيه هدير محرك سيارة، والتفت ليرى تقدم مقدمتها خلف سياج المقهى النباتي، وتوقفها، وظهور مالك المطعم يرتقي الدرجات قاصدا إياه؛ تاركا جسده الممتليء يستقر على كرسي، وقال بعصبية، ووجنتاه اللتان تكادان تذوبان بالشيخوخة ترتجفان:

– لا تُماريني، فإنك تعرف حكايتي، وإني أقول كلاما؛ عليك أن تَصدقه، وقد مرت أكثر من ثلاثين سنة على ذلك الفعل؛ أنني لم أقتله؛ نعم لم أقتله، فالذي رافقته للسرقة هو الذي أجهز بضربة على رأسه بقضيب من حديد، لأنه أراد مقاومتنا؛ بأن وجه بندقية صيد إلى جسدينا، وكان يظهر من عينيه أنه كان يحاول بكل ما يتسلح به، أو بكل جهد قوته؛ في انقاذ حياته وماله.

حار المُتعقَّب فيما سيتكلم به، ويدفع عنه اندفاع هذا الرجل الهستيري، الذي بدأ ظهره ينحني بعمره الذي تعدى سبعة عقود؛ ويفكر فيما يمكن أن ينطق به ليُكذّبه؛ بأنه لا علم له بما قام به منذ أعوام مضت، فقال:

– كيف عرفت يا سيدي بأني أعلم بحادثة القتل هذه؛ التي برَّأت نفسك منها؟

رفع الرجل أُصبُعه في وجهه، وجسده يرتجف، وقال:

– لا تتجاهل؛ فإني قرأت على وجهك ما تحتفظ به ذاكرتك، وما تُبطِنه نفسك.

رد هو قائلا وقد خاف من بطش الرجل:

– تنحّى عني أيها الرجل، وهبْ أني على علم بما حدث، فما تظن أني فاعل الآن؛ لا شيئا.

برقت عينا الرجل، وضحك بانفعال حاد، وقال:

– ستشي بي؛ ستُبلّغ بي إلى جهاز الأمن ليقبضوا علي.

رد هو محاولا النهوض والانصراف من المكان:

– ولأي هدف؟ أنا لا أُبلّغ بأحد، وكيف أنقل فَعلتَك إلى إدارة الأمن، وقد مرت عليها عدة سنوات، وإن هذا لمن أفعال من لا يُقدرون العواقب، ولماذا أزج بنفسي في سرقتك، وفي قتل إنسان أنت تُبرِئ نفسك منه.

لم يبال الرجل لما وعد به نفسه، بأنه بعيد كل البعد عن قصته، فقال متوعدا إيّاه:

– إنك معروف الآن، وسأترصد لتحركاتك، وإذا ما اشتهت نفسك إلى الاخبار بي سأقتلك.

ثم تذكر شأنا ذا بال؛ كان غائرا في نفسه، فعاد إليه هدوؤه قليلا ما، وقال، وكانت نفسيته المتأثرة بذلك الحال قد ملأت العين بدمع يلمع، وباحمرار حزن دفين:

– كنا؛ أنا وهو والآخرون قد رمينا بأنفسنا إلى أمواج البحر الهائجة، وسبح من كانت له القدرة على مجاهدة الأمواج الضاربة لصخور الشاطيء؛ بقوة قد تُهشّم عظامك. كان قائد القارب يمسك بمقبض المحرك الموجه؛ وهو المهرب للكائنات البشرية إلى سواحل إيطاليا؛ إما هم أحياء، أو كثل من لحم تجرفها تيارات البحر الأبيض المتوسط إلى الشواطئ المهجورة، ويصيح فينا بذلك الأمر المريع؛ أنِ اسْبحُوا، فشاطئ النجاة والوصول؛ يظهر من وراء ضباب نسيم الصباح، وسبحت مع السابحين، وناديت عليه، فأجابني صاحبي بصوت كليل، ومختنق بماء البحر المالح أنه هناك، ولم يرد علي في المرة الثانية، فعرفت أن موجة عاتية أطبقت عليه، وخرت به إلى أعماق البحر، ولم يقتله فقط الموج المائج، فقد كان الجسد الآدمي لا يتحمل درجة الماء؛ التي انخفضت إلى مستوى التجمد في ذلك الفصل، فقد مات الذي قتل مالك الضيعة غريقا، ونحن نحاول أن نطأ أرض إيطاليا مهاجرين سريين؛ أرض حلم الثراء؛ كنا نتزود به في مُخيلتنا الجدباء، وفي قلوبنا الظمآنة ، ولم أعلم عن أي خبر عن جثته، بل اختفيت عن العيون الراصدة، وتحاشيت البحث عنه، أو الاستعلام عن ما إذا رمى البحر بجسده؛ لأني كنت أريد أن أفلت بنفسي من المحققين في جريمة السطو والقتل، وأن أنجو من الغرق.

وفي غمرة هذا الجو المشحون بلقاء مُفاجيء؛ بين المشترك في السرقة، وبين من تعرف عليه، وباسترجاع حادثة القتل، وأيام الهجرة عبر البحر العصيبة، والنهاية المؤلمة آنذاك لأحد ذانك الشابين المغامرين، والمندفعين بحماس خادع، وبمحاصرة صاحب المطعم غير المنتظر؛ طرأت عليه فكرة ليُخلي سبيله، فقال:

– أنصت إلي أيها الرجل إلى ما سأقول لك؛ حكّم عقلك فيما اعترفت به، فإني لست شاهدا على ما ارتكبته، وليس لدي أي دليل على ذلك.

كنتُ فتى أتسلّى تحت ظلال الأشجار بمزمار من قصب؛ لا أعي بما يحدث في الواقع، ومرت عربة بشخصين يتعقبهما آخران؛ يركبان دراجة نارية؛ هذا كل ما أتذكره؛ هل كنت أنت أحد المسرعين بالعربة؟ فإني غير مُتيقّن، وإن حاولت، فإني أكون قد زججت بنفسي؛ في أمر لا أعلم بتفاصيله.

نقر مالك المطعم بأصابع يده اليمنى على سطح المائدة بتشجنج، وقال:

– نعم؛ ليس لك دليل مادي قاطع؛ نعم.

لقد أنهك رجلَ مطعم الطريق حِملُ فعل إجرامي، والعُمُر الطويل، فأدار وجهه جهة البحر، واستنشق بعمق، ويأس هواء مشبعا ببرودة البحر، وأعشاب وطحلب هذا الأخير، ثم ترك المكان.

تنفس الصعداء ذلك الموظف العمومي، وذهب عنه الخوف من جدية الموقف، لقد شعر بمدى ثقل الماضي الرهيب على الرجل، فهو قد عاش هذه المدة المديدة بشعور يومي؛ بذنب تزداد حدته مع دنو الأجل، وبعد أن دبت في الجسد أعراض المرض، ثم آوى إلى بيته، ولم ينم إلا ساعات قليلة، ولما استيقظ في اليوم التالي؛ أحس برغبة شديدة في معرفة أول ما حدث، فالذي على علم به الآن هو الجزء الأخير من الحكاية؛ ثم قتلُ مالك الضيعة، وهروب المهاجمين بمبلغ من المال، وحتى يختفيان عن المحققين في الجريمة، وتعقُّب المفتشين لهما؛ لا يُعرف لهم مكان يمكن أن يتواجدا فيه، فيُلقى عليهما القبض؛ هاجرا إلى إيطاليا سرا عبر البحر، واستطاع أحدهما السباحة إلى أحد الشطآن وغرق الآخر، بعد أن لم يعد بالامكان اقتراب قارب الهجرة السرية أكثر؛ لاحتمال وقوعه في قبضة سلطات خفر السواحل البرية والبحرية.

فكيف تسللا إلى الضيعة؟ وكيف اهتديا إلى مكان المال؟ وكيف ضبطهما المالك فاصطدم بهما؟ وفي النهاية ما مآل أملاكه بعد موته؟

فما هو السبيل إلى الإجابة عن هذه الأسئلة؟ ويعود مُراجعا نفسه، فيقول بأن الواقعة لا تعنيه في أي شيء، ويستمر في تَرداد تلك الأسئلة التي تجيب عن محاور الحدث، فيُقرِّر في الأخير أن لا يتراجع، فيُسافر إلى الجهة التي كانت فيها ضيعة صاحبها المقتول، وأن يسأل من ما يزال يتذكر واقعة الفاجعة، وأن يتتبع الخطى.

للذهاب إلى هناك عليه أن يقطع مائة كيلومتر، وهذه ليست بمسافة طويلة، وقد يكفي يوم واحد على الأقل؛ ليجد أحدا يتكلم إليه، فيُمسك بالخيط الذي يُفكِّك كُبَّة الحياكة.

وقد سار في الطرق المؤدية إلى هناك، وكانت المفاجأة الكبرى، وهي ذلك الانفجار العمراني؛ كأن الأراضي المُغِلّة، والمسارب التي كانت تربط بينها، والتي جرى فيها حافي القدمين؛ مُنتشيا بسخونة ترابها المذرور بحوافر الدواب، وعجلات العربات؛ قد أينعت هذه العمارات العالية والمكتظة بالسكان، وهذه (الڤيلات) المفروشة أرضيتها بِبُسط معشوشبة مُستنبة، أو بعشب اصطناعي؛ كل ما رآه شكلته الأيدي الماهرة، ولا أثرا للطبيعة فيه؛ إلا شجيرات عاقرات؛ أو لا لاقح لها؛ لا تُنبِت حلوا، ولا حامضا، وهي للزينة فقط، ولم يَفْضُل من ذلك الزمن؛ إلا طريقا قديما تقف له الممهدات الميكانيكية بالمرصاد، وفي أحد جانبيه دار متهالكة البناء، وآيلة للسقوط، ما يزال يشغل جزءا من واجهتها حانوت حلاق؛ كان أبوه يجره إليه جرا، وهو صغير السن؛ كارها لماكينة قص الشعر المخيفة؛ ليحلق شعر رأسه، وواجهة الدكان لم يتغير فيها أي شيء، قبل أن يدخل إليه نطق بتحية السلام، ولما ردت مجموعة من الرجال بالمثل؛ أطل برأسه نحو الداخل، فرأى رجلا كبير السن جالسا يتحدث؛ على كرسي انتظار الزبناء الطويل والوثير، والحلاق عاكف على جز شعر الجالس على كرسي الحلاقة، وأطال النظر في وجهه، فعرفه؛ إنه حلاق الطفولة، وإن تقلص الجلد وبدأ ينكمش،

وذبلت الشفتان، وبرحت بعض الأسنان الأمامية فمه إلى غير رجعة، وإن ناداه باسمه فلم يلتفت، ورد بأن «نعم» ؛ لأنه من المألوف أن يسمع الحلاق تحية السلام؛ سواء من القادم للحلاقة، أو المار من أمام حانوته ممن يعرفونه، وأن يسمع اسمه، وألقى عليه الحلاق في الأخير نظرة باردة، ثم عاد وظل يحدق، فتذكر الوجه وقال:

– إني لم أنس صورتك، فأنت ابن حارس الضيعة.

أجاب هو بابتسامة المغتبط بلقاء الوجوه الطيبة القديمة:

– نعم؛ ولم آت لأحلق، فإنك الحرفي الوحيد الذي يحتفظ بما مر من أحداث الأفراح وأحزان المصاب، والوقائع المؤلمة في هذه المنطقة، ولا أتذكر أنا غير حادثة القتل؛ التي تعرض لها مالك الغِلل، كانت على ما أذكر غير بعيدة من هنا.

ولم يكد يُنهي كلامه؛ حتى تكلم الشيخ الجالس؛ الذي كان صوته يُؤنس الحلاق الصامت، والمُركِّز بانتباه على آلة الحلاقة، وصاحب الرأس المحلوق؛ قائلا بحماس:

– مر على تلك الواقعة زمنا طويلا.

قال الحلاق:

– إنها حادثة قتل قديمة، وحسب علمي فإن القاتل ظل مجهولا؛ لم تُوفّق إدارة الأمن في الاهتداء إليه.

قال الشيخ:

– كانت قد روّعَت جريمة القتل تلك السكان، وغيرت حياتهم من المسرات والطموح؛ إلى أحزان، وخوف، وإحباط، وعدم الثقة في المهاجرين الغرباء القاصدين للضِّيَع للعمل؛ في مواسم جني الثمار، وصارت منذ ذلك الوقت حكاية؛ يتناقلها الناس فيما بينهم، ويرويها الكبار للصغار، والآن أصبحت من الماضي، وزحف العمران، وأُعطيت أسماء غريبة على الأذن

المحلية للشوارع والأحياء، وسكن البيوت القادمون من بعيد، وانقرضت أجواء الواقعة الدموية التي رانت لثلاثة عقود فقط، كما مات مُتألما من كانت له قربى، أو صداقة بالمقتول، أو من كان يُجاوِره في السكن.

ولو لم ينطق الحلاق؛ لمضى الشيخ يُطيل في الكلام، ويمتد به التذكر إلى التأسف على ما مضى من حياة جيله، التي لا يذكر منها إلا المفاخر، وإنجازات حيوية الشباب، وبطولات الكمال الجسماني؛ إذ قال:

– ولم تنته المأساة عند القتل، فبعد الدفن ونهاية مدة الحزن على المصاب الجلل؛ اجتمع الورثة، فحضر من لم يعُقه أي شيء، وتوكل من بينهم على من كانوا يقيمون خارج البلاد، وعددهم ما فوق العشرين، لأنه لم ينجب إلا ابنة، فكان الأحياء من إخوته وأخواته، وأبناء وحفدة الأموات منهم؛ جميعهم من الوارثين.

قال الشيخ:

– يظهر من كلامك؛ أن حالة الأرملة، واليتيمة بعد تصفية التركة لم تكن سارة.

قال الحلاق:

– بالفعل ذلك ما وقع.

لم يضف الحلاق على ما تفوه به كلاما آخر؛ حتى لا يُطلع الجالسين في محله عن ما قد يشيع بين الناس، وإن فرّقت المدينة الزاحفة أفراد جماعة الضِّياع الفلاحية، الذين يكونون راغبين في معرفة نهاية أسرة مالك الأرض المغلة؛ الثري المقتول.

وكان هذا ما فَهِم من الحلاق، وما قاده تحليله إليه، ورغم هذا فإنه تشجع وسأل الحلاق بنبرة استعطافية:

– إن قصة هذين الفردين؛ الأرملة والابنة أثرت في نفسي كثيرا، فما أقسى ظروف الحياة، فلا أستحيي، أو أمتنع، أو أتردد فأسألك.

قال الحلاق برضى:

– فإني أُجيب إن بالتلميح، أو بما يفي بسؤالك بدون مُراوغة.

فسأله قائلا:

– أو تعرف أين تُقيم الآن الابنة؟

أجاب الحلاق بدون تردّد:

– ولما لم ترض البنت بعد مقتل أبيها وتوزيع الإرث، بالسكن في المدينة مجهولة؛ لا يعرف أحد ماضي والدها المجيد، الذي كان من كبار مُلاّك الضِّيع، وأن تنتهي حياتها في بيت من بيوت المدينة؛ ببؤس وفقر؛ فإنها اِشترت قطعة أرض تبعد عن عمران المدينة، وبالضبط بعد الانعطاف عند ملتقى الطرق؛ عند الكيلومتر مائتان وعشرة، وبنت عليها بيتا مُتواضعا، وهي تتعيش الآن من فلح الأرض، وتربية الدواجن، والمواشي، والدواب، وتجيد ركوب الخيل كما كان يجيدها والدها، ويراها الناس هناك ممتطية صهوة جواد هزيل في كل صباح؛ هذا ما نقله إلينا بعض ممن يزالون يعرفونها.

ما إن انتهى الحلاق من رواية نهاية القصة الدموية؛ حتى شكره، وأنهى زيارته القصيرة لمحل الحلاق بتحية الانصراف، وركب سيارته وقادها بسرعة تطوي المسافة المائتي عشرة كيلومترا.

نظر إلى جهاز تسجيل ما قطعته السيارة من المسافة، فخفّض السرعة، وانعطف مستمرا في طريق ضيق؛ مُشظِّي الجانب مسافة ثلاثة كيلومترات، فوجد أرضا مُسيّجة بأشجار؛ تملأها تغاريد العصافير والطيور، وبين أشجار الليمون والبرتقال واللوز ظهر له بيت صغير؛ مطلي باللون الوردي الباهت، ولها باب على جانب الطريق، فقرعه بقوة بحيث يصل صوت الدقات؛ إلى من في السكن الموغل في وسط البستان، فنبحت كلاب بسُعار، وظلت تنبح حتى تلقت أمرا ممن سمع الطرق بالسكوت، فُتِحت إحدى دفتي

الباب الحديدي، فظهرت امرأة في عقدها الستين؛ مُتشعّثة شعر أشيب، ترتدي لباسا طويلا؛ ترفعه عن ركبتيها؛ رابطة أطرافه بخصرها، ويستر سيقانها كُمّا سروال قصيران، وترتدي على جذعها صِدارا صوفيا؛ حيك باليد من خيوط من الصوف، وتحتذي فردتي حذاء؛ ذو رقبة من البلاستيك؛ طالتا حتى قاربتا الركبتين، فلقد كانت المرأة تعمل في العَرصة، أو في خُم الدجاج، أو في زريبة الماشية، أو في إسطبل الدواب.

حياها؛ فردت على تحيته، وتساءلت بملامح وجهها؛ قبل أن يتحرك لسانها، تستفسر قائلة:

– نعم؛ أعندي غرض أقضيه لك؟

قال؛ حتى لا تصرفه عنها، لأنها كانت حازمة للعمل:

– ليس لي أي حاجة عندك سيدتي؛ ما أريد قوله هو أنني سبق وأن رأيت السارقين لمال والدك يرحمه الله، وكان القاتل أحدهما.

خففت قبضة يدها اليمنى عن مقبض الباب، وتقدمت خطوة خارجة، وظلت تحدق في وجه هذا القادم الغريب؛ الذي هو على علم بنهاية القصة الدرامية، وقالت مُقطّبة الحاجبين:

– أو أنت تتكلم بصدق؟

قال بثقة:

– نعم؛ ولماذا أقطع مسافة ثلاثمائة كيلومتر لآتي إلى هنا؟

قالت باستنكار، وشجاعة:

– قد تكون نصابا، كما نصب علي ذلك الذي أغراني، واستمالني بحب كاذب، واستحوذ على ما ورثته من مال، فطلّقته.

قال بصوت خافت لم تسمعه بوضوح:

– هذا فصل آخر من المأساة.

قالت وهي ما تزال تجيل ببصرها في هيئته:

– نعم؛ ماذا تقول؟

قال:

– سأحكي عليك ما يُثبِت صدقي.

فروى لها عن مرور الشابين سريعا بالعربة، وهو واقف بجانب سياج الأشجار؛ يتلهى لهو سن الصغر؛ بمزمار من قصب، وزاد فقال:

– تعرفين يا سيدتي ما تركه هذا من خوف ورهبة في نفسي آنذاك، وظلت الصورة ماثلة في ذاكرتي، والحادثة لا تُنسى.

صدقته فدعته إلى الدخول، وأوصدت الباب، وقادته إلى مكان أغصان كروم العنب؛ فيه كراس ومائدة من قصب، ثم أشارت إليه بالجلوس، وجلست هي باسترخاء؛ لأخذ نفس عن ما سمعته، وطفح وجهها بالدم، واغرورقت عيناها بالدموع، وتنهدت بعمق، ثم أجهشت في البكاء، وقالت بصراحة الأسيف:

– أَعِد علي ما رأيت في ذلك اليوم المشؤوم.

فأعاد على مسامعها ما شاهد؛ في هذه المرة كان يتكلم بالتفاصيل وبإحكام؛ كانت هي تُنصِت باهتمام، وتتأمله؛ كان قد بدا لها صبيا من ذلك العهد، وقرأت في عينيه، وفي ملامحه كلامه الصادق. كان هو قد وعد نفسه بأن لا يُطلعها على السارق الباقي على قيد الحياة، حتى يحين الوقت لذلك، وعلى مصرع الثاني، وهو القاتل غرقا في مياه البحر.

قالت بيأس، وواقعية، وهي تُكفكف دموعها:

– ما الفائدة الآن من كل هذا؟ فقد مر على الحادثة مدة زمنية طويلة؛ لم يُعرف لحد الآن مكانا لهما، وقد أتت السنوات على أعمار الناس، فرحل من رحل، وينتظر من ما يزال من المسنين القدر المحتوم، ولا أحسب إلا أن القتلة يموتون دقيقة دقيقة بتأنيب الضمير، وهم الآن إلا اصطناعا للمظاهر.

واستطردت قائلة بحنان:

– لن تبرحني الآن، فإني أحسست بأنك عشت طول عمرك تتذكر ذلك اليوم الدامي؛ مثل ما عِشناه، وما يزال مشهد والدي وهو ملقى على الأرض، ورأسه مشجوج؛ ينزف سيولا من دمائه؛ لا يفارق مخيلتي.

وقامت من جلوسها، ثم غابت في ممر بين أغصان الأشجار، وأُصص نباتات، وأزهار الظل، وبعد وقت قصير عادت حاملة صينية عليها براد تقليدي الشكل؛ من تركات الماضي الزاهر، فقدمت له كوب شاي ساخن.

بعد أن رشف الشاي المنعنع عدة رشفات، سألها:

– والوالدة؟

قالت خافضة النظرات، وبتنهيدة:

– توفيت بعد عمر طافح بالأحزان.

قال:

– الله يرحمها.

قالت له بعطف:

– أعِدني أن تزورني من حين لآخر، فإن زياراتك تُرفّه عني وتُنسيني مأساة الماضي.

وعدها بذلك، وأكمل شرب كوبه، وانصرف يريد الرجوع إلى بيته، بعد أن شيعته إلى الباب، يشملهما معا نباح الكلاب المسترسِل، ولوحت له بابتسامة، ودموع فرح جديد؛ هلّ عليها في ذلك اليوم.

وقد وفى بوعده، فكان يتردد على بيت ابنة الثري المقتول؛ كلما سنح له الوقت؛ في أيام عطلات نهاية الأسبوع، واطمأنت هي إليه، واستأنست به في وحدتها، ومالت إليه بعاطفة الأخوة؛ ذلك أنها لم ترزق بأخ، وظلت محرومة بإحساس بوجوده، كما فقدت حنان الأبوة بفقد والدها، وحنان الأم بفقد هذه.

وكاد أن ينسى تهديد مالك المطعم له، وكأنه أدرك بحسه أنه بدأ يشيخ، وانهار جسده بأثقال واقع الحياة، وتحت تأثير نداء العقل، ولومِه لنفسه. لم يكن يتصور هو، أو يطرأ على باله أنه سيحيا نهاية القصة، فماذا جرى؟

كان في ذلك اليوم في إحدى زياراته لابنة الفلاح المقتول، فكان قد غادر الطريق الرئيس بسيارته؛ بعد أن قطع مسافة الكيلومترات المعتادة، وانعطف إلى يمينه ليسير في الطريق الثانوي الضيق؛ مسافة الثلاث الكيلومترات؛ ليصل إلى بيتها، ولم يفطن إلى وجود سيارة كانت متوقفة عند ملتقى الطريقين، الذي غالبا ما يكون خاليا؛ بوجوده في امتداد الأراضي الزراعية الشاسعة، فما إن انعطف حتى رآها في مرآة سيارته الداخلية، وسائقها يحاول اللحاق به، فشعر بخطر يتهدده، فأسرع، ولم يستطع الإفلات، فتجاوزته السيارة التي تتبعه، وسدت دونه الطريق، وحاول أن يُراوِغ؛ إلا أن سيارته زاغت به عن الطريق، وإن كبح دوران العجلات السريع، إلا أن هذه وبتأثير قوة الاندفاع؛ اِنزلقت ساحقة حجارة، وتراب جانب الطريق، وغاصت به مقدمة السيارة في قناة تصريف المياه؛ التي تفيض في فصل الشتاء؛ غير عميقة، والتفت بخوف، فرأى شخصين يهبطان من السيارة الغريبة، ويتجهان إليه، تعرف على أحدهما؛ إنه صاحب المطعم، كان يتحرك ببطء؛ بجسده الممتلئ، والمترهل، والرجل المصاحب له اِنهال على الزجاج الأمامي للسيارة تكسيرا، فاستطاعت يده أن تمتد إلى المفتاح الداخلي، ويفتح باب السيارة، ويُحكم بقبضة قوية بياقة قميصه، ويُخرجه بقوة مُدحرِجا إياه على الأرض، ورأى مالك المطعم يرفع قضيبا ثقيلا من حديد؛ عاليا ليضرب به على رأسه؛ إلا أنه مال بجذعه جانبا، فتفادى ضربة قاتلة، وبقوة حركة الساعدين ضرب القضيب الأرض، وكان صاحب المطعم سيحاول للمرة الثانية، إلا أن صوت بندقية دوى في المكان، وتردد صداه بعيدا، فالتفت الرجل المرافق إلى مصدر الصوت الحاد، فرأى كائنا

مُلثّما يصوب ماسورة بندقية إليهما، فركب السيارة وقادها هاربا، واستطاع هو النهوض ليشاهد ذلك الملفّع باللثام يضرب بمِدرى صاحب المطعم من الخلف؛ على كتفه العريض، فسقط منبطحا على الأرض، وزاد عن ذلك بأن نزل برؤوس المدراة الحادة على عنقه، وصاح عليه متوعدا إياه:

– لا تتحرك أيها السافل، وإلا غرزت المدراة في أوداج، وأوردة، ونحر عنقك.

والذي هرع إلى المكان هما راعيان؛ كانا يرعيان شياهما قريبا من ساحة المعركة، وقد تابعا باستغراب، وجزع السباق الجنوني بين السيارتين، والهجوم على أحد لقتله، وأول ما قاما به هو إبعاد الملثم، وإزالة سلاح المدراة من بين يديه، وبُهِتا لما عرفا من يكون بعد أن جلس على ركبتيه لاهثا وأزال اللثام، إنه ابنة مالك الأرض المغلة المقتول، فأشارت إليهما بأن يُوثّقا يدي هذا المنكفئ على الأرض، وتسليمه لرجال الأمن، إنه أحد الاثنين؛ الذي قتل أحدهما والدها.

وسارت بثبات، ووقفت أمامه ترنو إليه بهم، وقالت له:

– وإن لم تخبرني بأنك صادفت أحدهما، فإني عرفت ذلك بحدسي الذي لا يخونني، قرأته في عينيك، وانتبهت إلى أن راكبي سيارة كانا يراقبانك، ومرا كم من مرة من هنا؛ يتحينان فرصة الانقضاض عليك، فقررت أن أحميك منهما، وإن تطلب مني ذلك الكثير.

واستطردت بيقين:

– إنه كان يريد أن يرتاح من سياط الضمير، فجاء يُقاتل بيأس، وقد امتد به العمر، والجزاء على فعل غير أخلاقي؛ يُريح النفس المُتعدّية.

وركب معها سيارتها القديمة، متوجهة به إلى بيتها الريفي؛ لتُضمد جروحه، تفوح روائح زروع الصيف، والغلة، والبهائم؛ من مركبتها المنخورة الهيكل بالصدأ، والتي تنقلت بها؛ مُتأهبة للمعركة التي خططت لها، وحاولت أن

تنتصر فيها، ذائدة عن هذا الذي قصدها يوما؛ مُتأثرا بحادث شهده، وسمع عنه، وهو صغير السن، وكان له كبير الأثر في حياته.

لطمة على خد الرجل

أُوّار ينبعث من لحمة خده؛ الدم حار يغلي؛ يكاد يفور؛ لهيبه يُتوج صخورا بركانية مصهورة. ألم مخيف بُثّ في عظمة صدغه؛ هذه ظن أنها انفلقت؛ فتملصت من عضلة، وغادرت وجهه؛ فارتطمت بالأرض؛ فخُيل إليه أنَّه سمع صوتها؛ فكان قاسيا؛ اِقشعر له بدنه. نزف أنفه الذي هبت عليه رياح اللّطمة؛ فسالت منه دماء خفيفة؛ مسحها بسبّابتِه؛ فكان أحمر قانيا؛ ساخنا، وسرعان ما تخثر على شاربه؛ دوخته رائحتُه؛ فدار رأسه، وانتابه غثيان، وغشيت عينيه سحابة؛ حجبت عنه الرؤية؛ فكاد أن يسقط.

يد قائد الدائرة الحضرية التي لطمته؛ ليست ككل الأيدي؛ فهي ضخمة، وصلبة، وقوية، وعدا هذا فهي متدربة؛ وإلا لما زحزحته عن مكان مثوله؛ ولولا يد المأمور ذو البِزة الخضراء؛ هي أيضا ممتلئة وصلبة وقوية؛ كانت ممسكة بساعده الضَّامر؛ بطريقة اِنحبس بها الدم في العروق؛ فلم تعد ذراعه، وتوهم أنها بُترت؛ لاندحر وهوى على الأرض.

فالقائد آمر، ومساعده مأمور، وكلاهما تواطئا على أن يسوما الفتى سوء العذاب.

لم يكن في حُسبانه؛ وهو رجل في سن التاسعة عشرة؛ أنه سيُلطم على وجهه؛ في حين أن ذقنه، ووجنتيه يكسوهما الشَّعر، وقامته طالت، وكادت أن تُقارب قامتي الآمر والمأمور؛ فنظر إلى القائد بعينين أحس بانفلاتهما؛ فلم يرتد له طرفه، ولم يستبعد أن احمرارا خضبهما، وأن شررا متطايرا تبثانه.

من أثر اللطمة المخزية لم يتمالك أنفاسه؛ فكانت تصعد، وتهبط وتُخضخض جسده. طفح باطنه بإحساسات كثيرة؛ حقد؛ بغض؛ ضغينة، ونذر لنفسه بالانتقام، وسبّ، وشَتَم. لعن القرارات والتوصيات، وكل ما هو مسطر في الحرية والتحرر، والمساوات والإخاء، والسلام، وأقنع نفسه أن

الفقر، والاستعباد، وتعالي القوي على الضعيف؛ ما يزالان يستشريان يوما بعد يوم، وتصور جيشا عرمرما من النحل الإفريقي الأحمر؛ ينخر في باطن جسم تمثال الحرية؛ يُبقيه هيكلا فارغا؛ مُهددا في أي وقت بالانهيار.

وواسى شخصه المنكوب في أنفته، وكبريائه، وكرامته؛ بحلم طفولي يائس؛ فخاطب نفسه؛ قائلا: «سأترصد له في إحدى خرجاته الرسمية؛ سأقبع له خلف جدار، أو شجرة، أو عمود كهربائي؛ حتى إذا صار قاب قوسين أو أدنى مني؛ نزلت بكل ما أوتيت من حزم وقوة بمُدية على رأسه؛ سيسقط بلا شك مضرجا بدمائه؛ فأكون قد انتقمت لنفسي، ولجميع من ذاقوا على يديه مرارة الذل والهوان، وأكون كذلك قد خلّصت الدائرة؛ من جبروته وطغيانه».

أما لماذا أطلق ساقيه للريح في عصر ذلك اليوم القائظ؛ من أيام شهر غشت؛ بين أزقة ودروب المدينة؛ في لحظة دكَّت الأحذية المحكمة بالسيور المفتولة الأرض دكا؛ بل تصور أنها كانت تميد تحت وطئهم؛ فسادت الشارع التجاري الكبير جلبة؛ بعد أن كانت حركة المارة، والباعة المتجولين منتظمة؛ كمن داس بحذائه مسربا للنحل؛ فاختل نظام ذهابه وإيابه.

فانقضوا عليه عُقبانا جائحة، وأوقعوه أرضا، ومرغوه في التراب؛ كقط وقع صدفة بأيدي صبية يلهون؛ جعلوا يديه خلف ظهره، ووضعوا عليهما قيدا حديديا، وفمه متعفر بالتراب، وساقوه تحت وابل من الصفع، واللكم، والركل؛ إلى الدائرة الحضرية.

لهول ما شاهد ابن الجيران؛ هتف باسم الفتى في ذهول؛ فتراجع مذعورا، وركض حافي القدمين، وطرق الباب طرقات سريعة؛ ممزوجة بصوت صراخه الزاعق، وأم الفتى تستمهله في الداخل؛ لكن كلمات تنبيه اِلتقطتها أذناها: «ولدك؛ ضربوه؛ دحرجوه؛ قبضوا عليه»؛ جعلتها تستحث الخطى؛ ساقاها في عراك مع أطراف ثوبها؛ تكاد تتعثر؛ فتسقط؛ قاصدة الدائرة الحضرية.

توسلت إلى القائد، وهمت بتقبيل يديه؛ تسترحمه؛ فدفعها بذراعه وطار؛ لم تيأس؛ قامت، وتعقبته.

اِجتمعت ثلة من الناس؛ كانوا ينظرون بقلوب متألمة. نطق من بينهم رجل ممتقع لون وجهه؛ هندامه أنيق؛ يحمل محفظة جلدية:

– امرأة من أراضي الفلح.

نظر إليه آخر بآستغراب؛ لم يفهم تعليقه، ورَجَّح البعض أنه تلميذ في المرحلة الثانوية؛ فظل هنيهة لا ينبس ببنت شفة، وشيء ما يختمر في ذهنه. قال أخيرا:

– ولا يكون القائد غير الطاغي في الجهة.

فغمز الأستاذ تلميذه، وابتسم باستهزاء.

كان الفتى يبيع على أرصفة الشوارع فاكهة؛ مُحببة لدى سكان مدينته، وهي تين النصارى؛ بعد أن يَكشط من حباتها الشوك المؤلم؛ بمكنسة من الدَّوم، ويصب عليها الماء؛ لتبدو نظيفة، وتصبح باردة؛ ثم يُقشرها بمهارة بسكين حاد؛ ويُقدمها لزبنائه؛ الذين يتلذذونها، ويستطيبون حلاوتها.

لم يكن بائع التين الشوكي الوحيد في الشارع؛ فكان عدد العربات الخشبية الممتلئة بها تجوب شوارع المدينة غير قليل؛ فالجناية الخطيرة؛ التي لا يلتمس قائد الدائرة لصاحبها عذرا؛ هي رمي قشور تين النصارى؛ لأنها تخدش مظهر المدينة النظيف.

وكان قد قبض المأمور بيده الحديدية؛ ياقة قميص الشاب بشدة؛ ضيقت على عنقه، وعصرت قصبته الهوائية؛ فاختنق، وباليد الأخرى قبض على نطاقه؛ فالتصق سرواله بمؤخرته؛ وحزها؛ لم يكن الفتى يسير على قدميه؛ كان محمولا يضرب برجليه في الهواء، كعصفور صغير؛ يُجاهد جناحاه المهيضان الرياح.

في طول المعبر الذي يؤدي إلى مكتب القائد؛ حلق في الهواء، وهبط على السطح المبلط؛ إلى أن أحس أخيرا بقدميه تطآن بساطا لينا وطيعا؛ فبقي بين السماء والأرض. فزِعت عيناه، وتاهتا؛ وارتبكت التفاتاته؛ فرأى وجها عريضا ممصوص الخدين؛ عيناه ضيقتان وجاحظتان؛ فيهما صُفرة؛ عينا قط تلمعان في الظلام؛ تنظران بثبات وجرأة، وجسدا كبيرا بدا له عاليا؛ خلف مكتب حديدي؛ يمتد طولا وعرضا؛ خُيل إليه بامتداده أنه لصق الحائطين؛ على يسراه سُبْحة مُكومة كثعبان صغير؛ انطوى على نفسه، ومزهرية فيها ورود بنفسجية، وعلى يُمناه يتدلى من حاشية المكتب طرف سوط أسود؛ فكان المكان يتضوع بشذى الورود، ورائحة المسك، وأيضا رائحة التعذيب والموت؛ فبدت عليه آيات الخوف؛ نظراته زائغة؛ جسده يرتجف، ويتصبب عرقا؛ يداه مشلولتان؛ لا تكادان تُمسكان شيئا؛ قوته خائرة، وساقاه ترتعشان. منذ أن وُلد والخوف من قواد الدوائر الحضرية، ومن المأمورين، ومن مُقدم الحومة، وبما يمت بصلة بهذا وذاك ينمو معه، وهو حين أراد أن يسترزق؛ وجد نفسه فجأة وجها لوجه؛ أمام قوات مُدججة بالهراوات؛ تُثير الرعب في النفوس.

فظل القائد، والفتى؛ يحدقان في بعضهما البعض؛ نظرات الفتى فيها خوف، وجهل بالمستقبل، ونظرات القائد فيهما جرأة، وعزم، وسطوة، وتصميم.

وجاء صوت القائد ثقيلا مختنقا؛ يتجشأ شحم بدنه السمين؛ ليُكسر ذلك الصمت الذي ران للحظات:

- هل تدري يا هذا ماذا فعلنا بتِينك الشوكي، وبعربتك الخشبية؟

شحب وجه الفتى، واعترته خيبة أمل مقيتة، واستشف من كلام القائد؛ أن مصدر رزقه ذهب أدراج الرياح.

استطرد القائد قائلا:

- تين النصارى أكلته حمير القرية؛ هناك بعيدا في المزبلة البلدية، وعربتك الخشبية؛ التهمتها النار؛ وتغوطتها بعد حين؛ رمادا ذرته الرياح.

انتفض الفتى في غيظ:

- إنها فاكهة زهيدة الثمن؛ تُذهب جوع الفقراء.

- بل فاكهة خطرة تمسك أمعاء البطون؛ البارحة لولا مُسهِّلات المستشفى الاستعجالي لانفجر بطن صبي.

- إني فقير أيها القائد؛ وبيع التين عمل الفقراء مثلي؛ به أعول أسرتي.

قال القائد في سخرية:

- إنك تكاد تثير الرحمة في قلبي؛ أنا لا أريد أن يسترحمني أحد.

- أنا لا أسترحمك.

- فماذا تريد إذن؟

- أن أحيا كما يحيا الآخرون، وقد خلقني الخالق لأسعى في أرضه؛ بحثا عن لقمة خبز؛ أسد بها رمقي؛ كما تسعى باقي مخلوقاته.

- هذا كلام مدارس؛ ما أنت عازم عليه فوضى.

- أنا لست نصابا، أو نشال حافظات.

- أنت سارق حقوق.

- لم أفهم.

- تُضايق الآخرين بأزبالك، وتقُض مضجعهم؛ تسرق حقهم في الراحة، والطمأنينة.

- هذا ليس عدلا.

- نُغير إذن الأعراف، ونعدل النصوص القانونية؛ حتى تقتنع بأن ما ينفذ عدل.

قال هذا، وقام، وخطا ببطء في اتجاه الفتى، وأردف قائلا:

- لقد استدرجتني أيها الفتى بعنادك؛ إلى حوار عقيم لا فائدة منه.

ثم أمسك فجأة عن الكلام، ورفع يده عاليا، ثم نزل بها على خد الفتى؛ فلمعت في عيني الفتى ومضات سريعة كلمعان البرق.

كانت اللَّطمة قد دوت في أرجاء الدائرة، اخترق صوتها الأبواب، والنوافذ، والحيطان الأسمنتية، ووصل إلى آذان جميع من كانوا ينتظرون؛ لحاجة أمام بناية الدائرة.

كانت اللَّطْمة صاعقة كَهْربت أجسادهم، وتسارعت دقات قلوبهم، وتصاعد دم الخجل إلى وجوههم؛ فألجم الخوف أفواههم، وكان ذلك الأُوّار الذي شعر به الفتى؛ ينبعث من لَحْمة خده، وذلك الدم الحار يغلي؛ يكاد يفور.

طرائد بشرية

يسير كعادته في صباح كل يوم بخُطوات حثيثة، يُسابق عقارب الساعة؛ مُنكس الرأس، تتعاقب في مُخيلته صور من الماضي البعيد والقريب، تتشعب المسالك في ذهنه، يجِدّ عقله في البحث عن أنجع السبل، يرى ظلَّه الذي يُلازمه، يظهر ويختفي؛ عندما يضُمه زقاق داخلي، أو يلفظه شارع ضيق.

عندما يعود من هنالك؛ حيث كان سارحا في أحلام يقظته، يسترعي انتباهه خلو شوارع المدينة الإدارية؛ من أية حركة، أو نأمة، فينظر في جميع الأمكنة برهبة، ويتطلع بعينين مرعوبتين إلى السماء؛ كمن يتفادى غارة جوية، تساءل بينه وبين نفسه؛ قائلا: «لماذا رحل الناس عن عاصمتهم الإدارية؟»، وفكر، ثم قال: «ربما ضاقوا ذرعا بمواعيدها الرسمية؛ فتكون أرواحهم على وشك أن تَزهَق».

فاجأته امرأة؛ وقفت أمامه كتمثال سيدة رومانية من الرخام، يُرفرف عليها البياض، وحولها أطفال؛ أجسامهم نحيلة، يرتدون أسمالا، ويأكلون ما يجدونه في صناديق القمامة؛ من فتات الخبز، وبقايا البيسكوت؛ هي أرملة، وهؤلاء أبناؤها اليتامى.

لاح الغضب على وجهها، قطبت ما بين حاجبيها، وجحظت عيناها؛ حتى خُيّل إليه أنهما سيبرزان من محجريهما، صوبت سبابة بمخلب مسنون كالرمح؛ قد تكون فقأت عيناه.

تحدثت بصوت حاد، ومرتفع؛ تردد صداه في الدروب؛ قالت:

– أنت نصاب؛ تحايلت علي، وأكلت رزق أولادي، أعطيتك ما طلبت من المال ليُعجَّل بتصفية معاش المرحوم؛ لم نتقاض منه فلسا؛ مر عام بكامله، وما زلنا ننتظر.

وبحركة خفيفة أدار وجهه، لو استطاع لوراه التراب؛ تمنى لو انشقت الأرض، وهوى في حفرة سحيقة. عاد أدراجه، وجرى في زقاق آخر؛

اعترض طريقه شيخ، تقوس ظهره، وشاخت ساقاه، وذراعاه، يتكىء على طرف غصن شجرة، هي عكازه، لوح به في وجهه، ووجّهه إلى بطنه؛ أحس بألم؛ لعل العصا اخترقت أحشاءه. بث صوتُه رعدة في جسده؛ خاطبه قائلا:

– معاشي ما يزال طي الملفات، أعطيتك مبلغا من المال؛ اشترطته عسى أن يُعجَّل بإيرادي؛ طال آنتظاري؛ لم أجد نقودا أشتري بها طعاما؛ ترى الآن يقتلني الجوع.

طأطأ رأسه، لم يجرأ على النظر إلى الشيخ، لم يزد في انتظاره عن لحظة، فهرب كلص تنبح في أعقابه الكلاب، وسلك شارعا كبيرا؛ وجده يغلي بمسيرة، يضج بهتافات، ونداءات رجال في سن الشباب، يُرددون شعارات؛ يطالبون بالعمل. من بين الرؤوس الآدمية التي تتماوج؛ حدجته عينان بنظرات فيهما تحمس، وتحفز، نطق صاحبهما بانفعال؛ قائلا:

– ما كنت أظنك محتالا؛ سرقت مالي؛ ما كانت تملكه والدتي من أساور، وأقراط ذهبية بِعْناه؛ حتى نجمع المبلغ الذي طلبته، وأمطرتني بالوعود؛ وعدتني بالوظيفة.

اصطنع الصم والبكم، وتجاهل الأشخاص، كأنه لم يسمع من أحد، ولم ير أيًّا منهم، دار بجسمه إلى وجهة نافورة، وتليها جذوع الأشجار، وأعمدة العمارات، فاختفى بينها، وغاب عن الأنظار، ولم يستبعد كون العيون تتعقبه؛ كسهام كنانة رام؛ لا تُخطيء الهدف، ولم يكن يدري أن أحدا ما في أثره؛ لم يكذّب أذنيه، فقد تسمّعتا إلى هبة الريح، وحركة خفيفة؛ توقف، والتفت بذُعر، ففغر فمه، وارتعدت أطرافه، وتسارعت دقات قلبه؛ إنسان عملاق؛ غزا وجهه الشعر، أشبه بذراع (روبو) صلب من حديد تمدد؛ فشدت يد تُكسر الحجر على كتفه، وتكلم بصوت أجش؛ قائلا:

– لا تقل أنك لا تعرفني، تذكر جيدا، أنا الذي خاطبتني ذات يوم بهذا الأمر؛ آمرا: بعد أن تغرب الشمس اِذهب إلى الشاطئ، وانتظر هناك قاربا خشبيا، سيحملك عبر البحر إلى الضفة الأخرى، وهناك ستجد عملا؛ تكسب منه مالا كثيرا. أخذتَ المال، ولم ينقلني أي قارب إلى الشاطئ الآخر؛ بل تمثل لي الموت يزحف مع الموج، وأشم رائحته ممزوجة برائحة أعشاب البحر اللزجة.

تراجع مقدار خطوتين إلى الوراء، ثم سار يستحث الخطى باندفاع؛ لا يلوي على شيء، ونفر من البشر يتصايح خلفه؛ يتهدّدونه، ويتوعّدونه: الأرملة واليتامى، والشيخ المتقاعد، وخريج المعهد التقني، والمهاجر السري؛ أمسكت به أيديهم بقوة؛ فهدهدوه بعنف؛ سقط على الأرض؛ فرموا بأجسادهم عليه؛شلّوا حركته بثقلهم؛ لم يبق له سوى رأسه؛ مرغه في الأرض، وعفَّره بالتراب. أغمض عينيه؛ فتحهما؛ حدق في سطح الغرفة؛ رأى المصباح المعلق، وخيطا من نور الشمس؛ يُضيء سحابة من الغبار؛ يقتحم بشكل مستقيم الغرفة؛ نظر إلى وسادته؛ وجدها مبللة بلعاب الغطيط؛ داهم سمعه صوت زوجته؛ يتردد صداه في أنحاء البيت:

– شخيرك يملأ الدنيا؛ أما زلت ترغب في النوم؛ الساعة تشير إلى التاسعة وبضع دقائق؛ تأخرت عن العمل؛ لا تنسى حليب الرضيع، وفاتورة الماء والكهرباء، وواجب الكراء؛ كسوتي مازالت عند الخياط؛ أختي ستزف إلى عريسها السبت المقبل؛ لا تنسى الهدية؛ زوجة أخي وضعت مولودا سمته (إلياس)؛ لا تنسى الهدية كذلك، وحاجات أخرى لا تخفى عنك.

آثار نوم الليلة الماضية بادية عليه؛ عيناه ناعستان؛ أطرافه مشلولة. جلس على حاشية السرير، وزرّر بفتور قميصه، وتتثاءب؛ فدمعت عيناه؛ استرجع أحداث حلمه؛ اطمأنت نفسه على الأقل هذا الصباح، وإن راوده إحساس بعد حين؛ بالخوف من أن يتحقق حلمه؛ في الأيام المقبلة.

ارتدى بذلته، واحتذى حذاءه، وسلك طريق العمل.

قد يشي به واحد من أولئك؛ الذين تلاعب بعقولهم إلى الشرطة، ولم يراوده شك في ذلك؛ فتصور، وهو يستحث خطاه، ووجهه إلى الأرض؛ كأنه يحصي قطع الطوار؛ عناصرا من جهاز الأمن يضعون على يديه قيدا حديديا، ويتوجهون به إلى المحكمة، وهناك يرتفع صوت جَهْوَري متمرن؛ يُدوي في القاعات، والممرات، ويسترعي انتباه الحاضرين:

- محكمة.

وتُسمع جلبة، ووقع أقدام القُضاة ببرانسهم الخضراء، ويراهم يأخذون أماكنهم المعينة على المنصة، وتستفزه ضربات المطرقة، وسيكون أبغض شيء عنده، هو الهدوء الذي سيغلُب على القاعة؛ فيتأهب بذعر داخل قفص الاتّهام، وتُضايقه تلك النظرات المصوبة إليه من الجميع، ويعلم كم من التهم الصحيحة، وغير الصحيحة تجترها أدمغتهم؛ حتى الأشياء الموجودة في القاعة الواسعة: الكراسي، والمصابيح، والأبواب، والحيطان، والسقف؛ تُصبح لها عيون ترمقه.

وتُفسح الأمكنة الأمامية لضحاياه، ويُنادى على كل واحد باسمه؛ فيتقدم الواحد بعد الآخر؛ ليسرد على جميع من تعمُر به المحكمة؛ كيف احتال عليهم هو، وابتز منهم ما كانوا يملكونه من مال؛ بوعود كاذبة؛ هكذا سيقولون.

تحكي الضحية الأولى؛ وهي الأرملة؛ قائلة:

«كان المرحوم زوجي يعمل سائقا بإحدى الإدارات العمومية، وفي عصر يوم من أيام السنة الماضية؛ وعندما كان في طريقه إلى إحدى المندوبيات؛ زاغت به السيارة المخزنية عن الطريق، وهوت به في واد سحيق؛ فلقي حتفه، ولم أكن في حياته أبرح البيت إلا لحاجة؛ فلم أعرف أي سبيل أسلكه للاستفسار عن معاشي، ومعاش الأيتام. منذ شهر تقريبا جمعت

وثائقا؛ كان يحتفض بها الفقيد في حافظته، وركبت القطار من مدينة بعيدة إلى العاصمة الإدارية؛ لأستفسر عن ملف وفاة المرحوم، وفي الوقت الذي برحت فيه محطة القطار بخطوات مضطربة؛ لا أعرف أي شارع يؤدي إلى مقر المصلحة العمومية؛ ظهر هذا الرجل في طريقي، ومسح براحة يده على رؤوس أطفالي، وسألني عن الهدف الذي من أجله سافرت من بعيد؛ فأطلعته على ملف الهالك؛ فأبدى استعدادا لمساعدتي؛ قال لي أن اسمه العائلي (بوحَجْبان)، وطلب مقابل الخدمة التي سيؤديها من أجلي، ومن أجل الأيتام مالا؛ اِستلفته من بعض الأقارب والجيران، وأعطيته إياه.

ويسرد الضحية الثانية، وهو الشيخ المتقاعد؛ قائلا:

– أحالتني الإدارة العمومية التي كنت أعمل بها على التقاعد؛ لأنني بلغت حد السن القانوني؛ فقدمت إلى المدينة الإدارية ذات يوم؛ من الجنوب؛ لأتصل بالمصلحة المركزية؛ المكلفة بتسوية ملف معاشي. أول مرة التقيت فيها هذا الرجل؛ كانت عقب صلاة العصر بجامع (السنة)؛ قال لي أن اسمه العائلي (بوجبهة)، وأنه موظف؛ له من الخدمات الإدارية عشرون عاما، وأنه أدرى بخبايا الإدارة، وأن تصفية ملف معاشي لا تكلفه سوى بضعة أيام فقط، وطلب مقابل المهمة التي سخر نفسه من أجلي مالا؛ فاتفقنا على المبلغ.

ضحاياه كثيرون؛ قد يظهرون متى يشعرون بخبر اعتقاله؛ فيطالبون العدالة بإنصافهم؛ قال في نفسه: «ومن يدري؛ فقد يصرون على التعويض».

لكن محاميه هو؛ سيظل يُذكرهم جميعا أنهم رشوه بمحض إرادتهم، وتذكر الكلمتين: (الراشي والمرتشي)؛ فابتسم، وضحكت بواطنه. ستمتد يد رئيس الجلسة القضائية إلى ملف؛ بحركة بطيئة لم تُغفلها عيناه، وتظلان مشدودتين إلى وجه الرئيس، وإلى الملف الذي ستُبسط وثائقه، وتُتلى ما احتوته من جمل وفقرات، وتُلفظ الكلمات ببطء:

– الضحية الثالثة؛ خريج المعهد التقني توفي بفقدان الأمل، واليأس؛ بعد أن ترك رسالة يوضح فيها مرضه الذي قاده إلى القضاء؛ البطالة التي عانى منها مدة طويلة، وما كانت تملكه أمه من مال؛ ابتزه منه هذا المدعو بعدة ألقاب: (بوجبهة)؛ (بوحجبان)؛ (الضحّاك)؛ (بوراس)؛ (مبارك). الضحية الرابعة؛ المهاجر السري؛ مات غرقا في عرض بحر شبه الجزيرة الأيبيرية؛ عندما ألقى بنفسه في البحر؛ من المركب الذي كان ينقله سرا؛ كان يريد أن يتسلل سباحة إلى شاطيء مهجور، ومن هنالك يتوارى في إحدى الغابات.

كان قد قرأ الخبرين في صفحة الجريدة الأولى بكُشك؛ منذ شهور مضت. استرجع في مخيلته صورتي الضحيتين؛ كما رآهما آخر مرة. كان يظل يستدرجهما إلى صفقتيه بكلام معسول؛ مُؤثر؛ حتى ترتجف عينا الواحد منهما من شدة الفرح، والشعور بالكسب المادي.

شردت عيناه في جنبات الشارع، وتطلع في وجوه المارة؛ فاستحيا منها، وتساءل ما إذا كانوا يشيرون إليه بأصابع الاتهام؛ ذهب ظنه إلى أنهم فعلا يتحدثون عنه، وينعتونه بكلمات مُخجلة: نصاب؛ محتال؛ لص.

فانعطف إلى أول مسلك وجده في طريقه؛ تُظلله الأشجار، وبعد أن قطع مسافة قصيرة؛ عرف أنه الشارع الذي لا يخلو أبدا من صف من طالبي التأشيرة؛ يوازي إحدى السفارات الأوروبية؛ يتكون أغلب أفراده من الشباب؛ الذين ضاقت بهم سبل العيش في بلدهم.

كالبرق الخاطف؛ طرأت عليه فكرة من تلك الأفكار؛ التي غالبا ما تحضُره؛ كلما زادت طلبات حَرَمه الملحة؛ هذا الصباح كانت قد ذكرته بحليب الرضيع، وفاتورة الماء والكهرباء، وهدية المولود الجديد، وهدية العروسين؛ اللذين سيزفان إلى بعضهما البعض؛ في عطلة نهاية الأسبوع.

منذ سنتين لا يتقاضى من أجرته إلا النصف؛ أما النصف الآخر؛ فإنه يُقتطع لتسديد مبلغ من المال؛ استدانه من شركة السلف.

فاقتنصت عيناه الجائعتان طريدة.

بين جذوع الأشجار؛ تجلس فتاة على مصطبة من الأسمنت؛ كغزالة راحت تُقيّل؛ تزفر الهواء بارتياح. تراقب عن كثب تحرك الطابور؛ الذي يليها طمأنها بالاحتفاظ بدورها؛ فلاذت بظلال الأشجار؛ تُريح ساقيها من الوقوف الطويل.

جلس في المكان الشاغر من المصطبة؛ بعد أن حياها، واختلس نظرتين إلى وجهها وقدها؛ سألها قائلا:

– هل من أجل التأشيرة أنت هنا؟

كانت قد نظرت إليه؛ وهي تسمع سؤاله؛ كان العياء يلوح على وجهها، ورغم ذلك ابتسمت؛ وهي تُعيد خصلة زائغة إلى شعرها، وأجابت:

– جئت من بعيد من أجل الحصول على التأشيرة.

حرك رأسه بعدم الموافقة؛ قال:

– تُتعبين نفسك بدون جدوى؛ من أجل شيء يستحيل عليك أن تنالينه في يوم من الأيام.

قالت وقد اربد وجهها:

– أصحيح ما تقول؟

قال بهدوء؛ وقد غَلَّق دونها الأبواب:

– أنا موظف بإحدى الوزارات؛ وابن العاصمة الإدارية. هنا وُلدت ودرست، وتخرجت من فصول الدراسة، واشتغلت بالوظيفة العمومية؛ أكثر من عشرين عاما، وأنا أدرى منك بما يجري في مكاتب الإدارات، والسفارات، والقنصليات؛ في ممراتها، وفي دهاليزها.

قالت؛ وقد انقشع عنها العياء:

– إذن فجميع الأبواب موصدة في وجهي؟
قال؛ يناجي باطنها المتعطش للأحلام:
– وما بيديك غير أن تمكثي هنا في بلدك؛ فتقنعين بما يجود به سوق العمل؛ من أجر ضئيل تصرفينه في يومك، أو تسخين بمبلغ من المال، فتحصلين على التأشيرة، وترحلين إلى حيث تجدين ما تصبو إليه نفسك.
قالت بانفراط، وتنهيدة:
– من سيأخذ المبلغ؛ أنت أم شخص آخر؟
قال:
–أنا؟ لا..لا.. أعرف شخصا يشتغل بالسفارة؛ قد يُيسر أمرك؛ فقط أنا سأقوم بفعل فيه خير لك؟
قالت باندفاع:
–كم يريد؟
قال:
– عادة لا يطلب كثيرا؛ فقط مئات من الدراهم.
وأمطر بلسانه أعداد المبلغ في أذنيها المستجيبتين دائما.
قالت باستسلام:
– ستأخذ أنت أم هو؟
قال:
– أنا طبعا، وسأحمل له الآن المبلغ، ثم أعود إليك بعد قليل لنتفق على موعد استيلامك للتأشيرة.
رآها تنظر إليه؛ ثم تطرق برأسها إلى أرض الحديقة المعشوشبة، وحقيبتها بيدها. حاول أن يظل هادئا، وأبدى عدم الاكتراث للحل الذي اقترحه عليها؛ قائلا في نفسه: «ألست أنا فقط فاعل خير؟»، وأخفى عنها لهفته، وجوعه للمال.

حين تناولت قلما، ودفتر الشيك، وبدأت تحرر المبلغ بالأرقام والحروف؛ غادر المصطبة واقفا، وزرر بذلته، وشد أطرافها إلى أسفل، وأعاد لربطة عنقه وضعها الأنيق، ودعك وجهه براحة يده، وشاهد يد الفتاة تدفع إليه بورقة الشيك بدون تردد، وعيناها تنظران إليه بعطف وأمل، ومكثت جالسة تنتظر؛ وهو سائر يدس بأصابعه في جيبه من حين لآخر؛ يلمس الشيك ويتحسسه.

كان قد رأى خطوط الإمضاء تتشابك، وتجري سريعة بقلم الفتاة، والأرقام ترتعش بين أناملها بالمبلغ؛ فناجى نور الشمس، وأحب الأشياء المعروضة خلف زجاج واجهات الدكاكين.

اكتشف بعد برهة أنه يتحدث بصوت مسموع؛ كالمخبول: «هذا المبلغ يكفي لحليب الرضيع، وفاتورة الماء والكهرباء، وهدية المولود الجديد، وأخرى للعروسين اللذين يستعدان لليلة عشق مُتهيّجة».

هيام في موسم الحصاد

اِنتظر شمس أواخر ماي، وانتظر؛ حتى احتلت موقعها في السماء؛ بين الأفق والسّمت؛ فتدفقت حرارة أشعتها في الجو، وبثت الدفء في جسده، ودَفقَت الدم ساخنا في العروق؛ فتمطى، وأينع فيه صفاء الجو رغبات مُلحة؛ فلا يستطيع كبح جماح جسد؛ ظل طيلة شهور فصل الشتاء فاترا، وباردا؛ حبيس الليالي الطويلة، وامتد أمامه فضاء البادية. زحفت الحقول بسنابلها الكُثار؛ لا تحدها سوى حقول أخرى؛ تجاور حقولا تضرب في بعدها نحو الأفق.

فتعرى، وغطس في ماء النهر؛ ارتعد قليلا ببرودة ثلوج قمم الجبال. دهن جسده بالصابون، وصب عليه الماء، فشاهد زيت تشحيم حاصدته، وسائل الوقود؛ يجرفهما الماء والصابون، ثم غادر النهر؛ فشم رائحة الأعشاب، والحصاد، والتراب؛ وطين لزج، وروث دابة، ورأى من بعيد ثورا يتودد إلى بقرة؛ فداهمت تفكيره المرأة، وانتابته الرغبة، وهو يهم بارتداء ملابسه؛ رآها تنزل المنحدر، وتنكفئ بجرتها إلى الماء؛ كانت قد خزرته بنظرة خاطفة؛ تخففت من ثياب الشتاء؛ فتمردت الفتحات، وانسدلت أطرافها في حرية، ومنحت لجسدها ما يتوق إليه من انعتاق، وتسيب؛ فشاهد مواطن الفتنة في جسدها؛ تبعثرت خُصُلات شعرها في عفوية، وامتد صدرها الناهد إلى الأمام؛ يتحدى الذراعين والساقين، ومواضع أخرى؛ دليل أنوثة أغرته؛ فكاد أن ينجذب إليها؛ لكنه حاد عنها.

فولى، وتصاعدت إلى رأسه دوخة، وانهار جسده؛ فشق طريقه هيمانا في حقل عار؛ حُصدت سنابله؛ عصفت به رياح العشق، وتلاطمته أمواج خضم الرغبة؛ فأنى له من مستقر؛ الأنثى؛ العقل؛ الرغبة؛ الزلة؛ اللذة؛ الفاحشة؛ الشعور بالخزي؛ الطمأنينة؛ الجنة؛ الجحيم.

قدم من الجنوب؛ قابضا على مقود الآلة الحاصدة بحركة المتعود، ولامبالاة؛ في محيط ملأه هدير المحرك؛ طيلة فترة زمنية طويلة. عيناه في طريق بدت وكأنها تبتلعه، ومن طول المكوث أمام لوحة القيادة؛ من قرية إلى أخرى؛ يحصد هذا الحقل؛ لينتقل إلى آخر؛ وهكذا؛ تضمه البادية، وبلا كلل، وهو يترك العنان لحركة موسى الحصاد؛ يأتي فيها فعله.

كالجرادة هو؛ حلق مع الرياح المدارية؛ في جسمه حرارة الصحراء، وفي نفسه شوق، وجوع إلى الخُضرة اليانعة، ورغبة جامحة في أن يحصد ما أثمرته أرض الشمال الخصبة والرطبة، والارتواء من الينابيع العذبة؛ المتفجرة من باطنها؛ ماؤها سائغ؛ يهمز فيه لفظة استمراء: «ما أعذبه!»، وتساءل بانفراج في باطنه، وبسمة مكتومة بدت على ملامح وجهه؛ قائلا: «ما للجنوب يزحف بهذا الجوع، وهذا العطش؛ نحو الشمال؟»؛ فاقتنع، وقال: «الشمال زهرة تفرز رحيقا؛ امرأة تنتظر من يحرث بوارها؛ غيمة حبلى ببخار الماء؛ تنظر إلى الرعد باشتهاء؛ ليقصف رحمها؛ فتنثر قطرات المطر؛ هي ضرع بقرة يمتلئ بالحليب؛ ينز بالسائل؛ تُلقمه لعجلها، والجنوب يمتص في لُهاث حار لزوجة الأشياء؛ لتحيا، ويتجدد عنفوانها، وتنضج من جديد؛ وهكذا لتستمر الحياة على سطح الأرض؛ لتدور هذه الأخيرة داخل منظومة الأفلاك؛ في فضاء الكون إلى أجل؛ هو في علم الخالق سبحانه.

قبل الفجر؛ كبح عجلات حاصدته؛ فسُمع الهواء المضغوط يُنفث؛ الآلة تتنفس الصعداء، وأطفأ الأضواء الكاشفة؛ غير بعيد عن حائط منزل صاحب المزرعة الجانبي؛ مُتلفِّعا بعِمامة سوداء؛ اتقاء نسائم الصباح الباردة، وقد سرى التعب في جميع جسده؛ انتابته غفوة؛ فاستسلم لها؛ غرق بعدها في نوم عميق، ولم يدر أن عينا لم تنم، وقلبا تفتح كالوردة في هذا الصيف؛ ظل مُتعلقا بالقادم المجهول؛ يسرق نظرات في ظلام الليل؛ من خلال النافذة المواربة؛ فدق ساعة تدبدب أضواء الآلة في سماء الليل، ودوي الهدير

من بعيد؛ فظلت آذانه تستقبل هذا الهدير؛ وهو يدنو، ويرتفع؛ فلم ير إلا شبحا طويلا؛ أغلق على نفسه الهيكل الحديدي، وتمدد فيه؛ يغط في نومه؛ فعادت إلى سريرها؛ يتناوبها النوم والسهاد؛ إلى أن سمعت صياح ديك؛ ففتحت النافذة، ورأت الضباب ينقشع عن جسم الحاصدة، ولا وجود للشبح. حزنت؛ وإن كانت تعرف أنه في مكان ما غير بعيد عن البيت؛ فدرجت في الباحة جسدا بدون عقل؛ سهت عن طبق؛ فانفلت من يديها؛ استقبلته الأرض هشيما.

منذ أن تحدث أبوها إلى أمها البارحة وهي تنتظر؛ كان يتكلم وهو يرفع طاقيته إلى قمة رأسه، ويتركها تهبط على جبهته؛ فتبدو كعرف ديك، ويلمس منطقة المخيخ بأصابعه بأناة، ويضغط بساعده على الوسادة؛ فتتفلطح، وينتفخ كالطاووس، ويُمدد رجليه في ارتياح؛ ثم يرفع كأس شاي من الصينية النحاسية ويبتسم، وعيناه تُحملقان في الأرضية المزلجة؛ سمعته يقول بأن السنابل نضجت، وأثمرت ما يكفي من الحب، واصفرت أوراقها وسيقانها؛ فآن حصادها؛ فقال: «لذلك اكتريت حاصدة جديدة؛ سائقها شاب من الجنوب؛ كله قوة، وإقدام، وحزم، وحياء؛ سيأتي قبل الفجر؛ ليشرع في حصد مزرعتنا».

في خضم كلمات الحديث؛ تخيلته أحلامها الأنثوية كبيرا كالجبل، وشاسعا كحقل سنابل القمح، ويديه ثقيلتين؛ يفور منهما عرق ساخن؛ تقبضان بقوة، ودربة على مِفك صامولة؛ أو مطرقة يصك صوتها على الحديد الآذان؛ لا يهاب الخطر؛ يصرع الوحوش التي تُرهبها ليلا؛ فتتكوم في ألحفتها، وأغطيتها مسهدة؛ تلتمس الحماية والدفء والحنان؛ يلين للحب، ويثور ويشتد بأسه للظلم والذلّ؛ فارس؛ مِغوار؛ شامخ كرأس الجبل؛ على صهوة جواد له قوائم عالية، وعُرف كشعر غانية. يثقب الأرض بحافره؛ مرن؛ يستجيب للمهماز؛ فيومض في البرية كالبرق .

كانت ما تزال صغيرة؛ مرحة، وعابثة، وثرثارة؛ تحول بين أبويها، وتبادلهما الكلام على راحتهما؛ في شؤون المزرعة والسوق، وأغراس الصيف؛ فيطردانها إلى خارج البيت؛ حيث المُهر، والعِجل، والهُرير، والجرو؛ فلها ما تشاء من النط والقفز والجري؛ أما الآن فَرع طولها، وتشكلت (مورفولوجية) قدّها؛ النهدان، والخصر، والردف، والعنق؛ فسكنت حركاتها، ونزعت إلى الإصغاء أكثر من النطق. تلتقط أذناها باهتمام بالغ؛ أخبار الناس، وليس جميعهم؛ فقط من ورد اسمه على اللسان ووصفوه، وعددوا خصاله؛ كسائق الحاصدة؛ فلم تصدر عنهما أية نظرة ذات معنى، أو حركة توحي بأنهما لم يرغبا في مشاركتهما الجلسة؛ ليس ذلك عن قصد؛ وإنما أدركا وبلا اكثرات أن ابنتيهما أصبحت في سن البلوغ؛ كعجل لفظته أحشاء الحمل؛ فدب، وقام، وترنح، وهوى، وركض متعثرا؛ يستكشف ما يحيط به. آن لها أن تسمع، وتعي، وتتعظ، وتستطلع، وتعرف ما يجب معرفته.

ارتفع صوت أمها مُشمرة كميها عن ساعدين مكتنزين؛ شدتهما إلى إبطها بالشمّار، ورفعت أطراف فَوْقِيتِها، وتَحْتِيتِها إلى نطاق من ثوب؛ آمرة؛ مُستعجلة إياها:

- ماء العجين، والشاي، والغَذاء.

فحملت القُلة على كتفها؛ طائعة دون تبرم، وقصدت النهر المحاذي للمزرعة؛ وهي تنكفئ تملأ جرتها؛ نظرت حواليها بمؤخر عينِها، فرأت ذلك الشاب؛ سائق الحاصدة؛ وقد تعرى من ثيابه، وغطس في ماء النهر، واستحم؛ ثم غادره؛ وهو يهم بارتداء ملابسه؛ إذ زاغت منه نظرته؛ فرآها، ثم انحرف عنها سريعا، وسار؛ فلم تدر السبب.

كادت أن تنفلت العيون، وتتمادى في التحديق في بعضهما البعض؛ فيكون قد رشق كل واحد منهما الآخر بسهام نظراته؛ كانا على أهبة أن يعلنا على بعضهما البعض؛ حربا مُهيجة للقلوب، ومُتحمسة للنزال؛ في

تحد وإصرار؛ فعاد بها المسرب الصاعد في اتجاه البيت؛ هائمة في خيالاتها؛ مُنقبضة؛ حائرة، وتسلق هو سلم الحاصدة؛ غاضا بصره؛ بأصابع مُتشنجة، وجس نبض المحرك؛ فدارت تُرُسُه، واسطواناته، وانخرط في هدير مستمر، فدار بالآلة؛ بحركة من يديه على مقودها؛ إلى المزرعة، وتركها تغرز الموسى في سيقان يابسة وجافة؛ تلتهم السنابل، وتلفظها أكياسا من حبوب القمح؛ فلاحت على وجهه؛ الذي لفحته أشعة شمس الريف؛ فصار أسمر؛ آيات الجد: عيناه ضيقتان؛ تنظران بثبات؛ شفتاه مزمومتان. صدغاه بارزان؛ يلمعان تحت وهج الشمس، وغار شيئا ما قذاله، وجبهته خطتها التجاعيد، وتندت بالعرق. كانت هي، ومن حين لآخر تترك ما بيديها وتنظر إليه؛ فتسحرها انهماكته في العمل؛ دأبه الذي يشي لها بسذاجة طُبع عليها، ولاحظت مدى انسجامه الذي لا حدود له؛ فلم يجد الضيق، أو التأفف، طريقه إليه، أو الكدر إلى صفحة وجهه؛ فتفوهت بإعجاب:

– ما أجمله؛ جماله في قوامه العنيف، وفي سعة صدره، وفي إصراره وإقدامه؛ في أنفته وكبريائه.

فلم يهن، أو يستخذ، ولم يدع فسحة لأنفاسه؛ حتى أتى على آخر حزمة من السنابل؛ عزلاء وسط الحقل؛ فكبح جماح الآلة، ومسح بطرف بذلته عرق وجهه.

فجاءته بعد غروب الشمس؛ تتدثر بإزار أبيض، يلفها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها؛ بدت له ملاكا يدب مع نسمات الليل؛ وئيدة الخطى؛ خفيفة الظل؛ رقيقة؛ لينة؛ تنفث أنفاسا طيبة من أعماق صدرها؛ في حركاتها رعشة؛ تحتويه عيناها؛ تُحملقان في عينيه اللتين خضبتهما حمرة التعب؛ تصاعدت من بذلته روائح التشحيم والبنزين؛ داعبت أنفها؛ تشممتها؛ واستاطبتها؛ فبادرت إلى السؤال:

–هل آن لك أن ترحل؟

وقف مشدوها؛ يتأمل بياض بشرتها، ووجهها المتناسق التقاسيم. قال:
– نعم؛ آن لي أن أرحل إلى بلاد أخرى؛ إلى حقل آخر قُبيل آذان الفجر.
قالت:
– أهكذا أنت؛ دائما ترحل؟
أجابها؛ قائلا:
– ظروف الاسترزاق كما تعلمين.
قالت:
– ألهذه الدرجة تُغيبك ظروف الاسترزاق؟
قال:
– أسلك الطريق؛ فتطويني المسافات، وقد أعود.
قالت:
– كوّمت حاصدتك الحُزم للدّرْس؛ لأنك أحسنت حصدها.
قال:
– هذا يزيد من حماسي.
رفعت يدها الضئيلة بالسلام، واختفت من أمام عينيه؛ في ظلام الليل؛ كالحُلم؛ كشهاب أومض فجأة وآنطفأ، وفي كيانها المرتجف سؤال واحد: « هل سيعود؟».
في ربيع العام التالي؛ قصد حصاد الآلة تلك المزرعة؛ التي بزغ منها في إحدى ليالي موسم الحصاد الفائت؛ كوكب مضيء؛ لم يكن يرتدي بذلة الحاصدة؛ عليها زيوت المحرك المائعة والتشحيم، والبنزين؛ كان في كامل أناقته؛ يفوح منه عطر أخاذ؛ يقود سيارة؛ يصطحب معه أباه، وعمه، وأمه، وعمته؛ يمتلىء جيبه بحجم هدية، وارتفعت من بيت ذي الطاقية

المنسدلة في تيه كالعرف؛ زغرودة امرأة؛ لقد جاء من يخطب يد التي تستقي بالقُلة من النهر.

المعتقل

منذ أن رَجعتُ من الجنوب، وأنا أسعى جاهدا للبت في سؤال؛ كثيرا ما نالني بسببه الأرق؛ في ليالي الشتاء، وما أطول تلك الليالي، وما أحلكها! فضوء القمر تحجُبه غيوم العواصف؛ لا أريد البتة أن أُسر به إلى أحد ما، وإن كان يُضرب به المثل في كتمان الأسرار؛ لأن الشخص المعني؛ لم يتفوه بكلمة واحدة؛ حتى عاهدته على أن أجعل قصته في بئر لا قرار لها، وسأموت، ومعي ما أودعه في ذاكرتي من تفاصيل الحكاية؛ فكانت بحق وديعة استأمنني عليها؛ كان السؤال هو: «هل أكتب قصة ذلك الرجل؛ الذي كان في سنين مضت؛ إماما لمسجد إحدى قرى الجنوب النائية؟».

قد أصب واقعته في قالب حكاية، وأدعي أنها من نسج الخيال؛ إلى من يستسلم لوقاحة طُبع عليها فيسألني؛ قائلا: «من يكون هذا الشخص الذي أمتعتنا بسيرته، ومنذ متى سعيت إلى التعرف عليه، واستملته بطريقة ما إلى مجلسك، واستنطقته بدهاء؛ حتى تلفّظ على سمعك ما قُدر عليه من حياة هي الجحيم بعينه؟ ولا تنسى؛ فقد ابتغيت السبق؛ لأنك صحفي، وهذا يدر عليك مالا، وشهرة».

فلم أنته إلى جواب؛ يُريحني من شقاء التردد؛ سواء أأصبت به أم أخطأت، ثم أعود فأقول: «وإذا سردت الحادثة؛ أكون قد خذلت ذلك الإمام، ولم يكن أهلا لهذا، فأُصبح صغيراً في عينيه، وأفقد صداقته».

فأغْرَق من جديد في دوامة من نفس السؤال، وأنتحل من الأسباب، وأخترع من الأعذار؛ ما يجعلني أوثر ثرثرة السّوقة؛ عن صمت الحكماء، فأرتاح!

وحدث ما لم أكن أتوقعه...

كان اتصالي بعبد الله إمام المسجد؛ الذي دأبت على زيارته طيلة وجودي بالقرية -ولم يحدث أن ارتاب السكان في لقاءاتي به-سينتهي بمجرد أن

عرجت عليه، ومددت إليه يدي مودعا، وعيناي لا تبرحان وجهه، ونظر هو في عيني؛ غامزا بعينه اليمنى، يُذكرني، ويُحثني في آن واحد على حفظ سره، ورحلت عائدا؛ إلا أنني كنت أتصل به بالهاتف من حين لآخر، فنتبادل تحية السلام، وأسأله عن صحته، وأدعو له بالعافية، وطول العمر، ويسألني هو عن ظروف عملي.

في صباح يوم من أيام الآحاد؛ كنت ما أزال أمشي في أنحاء البيت بلباس النوم؛ أهيء فطوري، امتدت يدي إلى الهاتف؛ طلبت عبد الله؛ سمعت صوتا غريبا؛ سألت:

– هل عبد الله موجود؟

جاء صوت رجل:

– أنا مؤذن المسجد الذي يؤمم فيه عبد الله المصلين.

– وعبد الله؟

لم يجب وسألني:

– هل أنت الذي تتصل به حين لآخر؟ إني أذكرك، وفدت يوما على قريتنا.

– نعم أنا هو.

قال أخيرا:

– جاء إلى المسجد رجلان، كانا يستقلان سيارة، دعا عبد الله إلى مرافقتهما. استغربت؛ لم يعص أمرا، ورحل معهما، ومنذ تلك الليلة لم يظهر.

أقفلت الهاتف.

تساءلت: «أيُعتقل الرجل مرة ثانية؛ هل ظلت أجهزة الأمن تشك في أمره؛ منذ أن أُخلي سبيله منذ عقد من الزمن؛ أم هي مناورة خططت لها

المخابرات لبلوغ هدف معين؛ هل أراد عبد الله أن يؤكد وفاءه لمبادئه السابقة، فعاود نشاطه؟».

استبعدت السؤال الأخير باستغفار تائب، لأنني أكون قد كفرت عبد الله، وشككت في إيمانه بالله عز وجل، وهو الذي خاطبني قائلا: «كانت الخلاص يا أخي في ذلك اليوم؛ تلك الآيات البينات من القرآن الكريم؛ التي سمعتها تُتلى من الزنزانة المجاورة لزنزانتي».

ولم يردف عقب هذا الكلام كلاما آخرا، فقد دمعت عيناه، واستحيا أن يبكي بكاء الأطفال والنساء.

فارتدت بي الذاكرة إلى مساء ذلك اليوم؛ من أيام شهر يونيو؛ الذي غادرت فيه المؤسسة الإعلامية؛ التي أعمل بها صحافيا؛ يائسا من بلوغ هدف أضحى حلما، كما أنني برمت بعملي، والتمست مكانا نائيا؛ أقضي فيه أياما من عطلتي السنوية، ومحيطا آخر يختلف عن هذا الذي غرق فيه كياني، فلا سبيلا إذن إلا إلى بسيط من الأرض، تسطع عليه أشعة الشمس، وتسري الحرارة في أجوائه.

بسطت خريطة، وسلك قلمي طريقا مُتعرّجا؛ ينطلق من المدينة التي أسكن فيها، ويمتد، ويجتاز شعاب جبال الأطلس؛ ليدق سنّه على اسم واحة تُتاخم الصحراء، وقلت: «سأركب أشكالا من العربات، وأمتطي ظهور الدواب؛ لتطأ قدماي أرجاء هذه الواحة؛ هنالك تتعافى النفس من الضجر، والسأم، ويصفو الذهن، ويتفتق العقل عن أفكار، ومضامين إبداعية ذات قيمة إنسانية».

في ليلة مُظلمة وصلت إلى القرية، ودلفت إلى غرفة على سطح بيت اكتريتها للإقامة، تشرف على نهر، يجري ماؤه في واد، وعلى بستان به نخيل باسق، وأشجار ذات ثمار يانعة، ومغروسات أخرى. يُطبق الصمت، ويسود الهدوء؛ غير شقشقة عصفور، وصهيل خيل، ونهيق حمار، وصوت

نداء من بعيد، ولم يكن ليوقظ الهائمين في خيالاتهم، والحالمين في يقظتهم من القرويين، وليشق جدار الصمت سوى صوت مؤذن الصومعة التي تعلو جميع بيوت القرية، وأقصد المسجد مثل الجميع؛ في غير تكاسل، أو تأخر، وحييت الإمام بعد صلاة المغرب، واستمعت لتلاوة القرآن، ثم جلست على لحاف من صوف الغنم؛ بُسط على حصير؛ إلى جانب عدد قليل من الأفراد، ضمنا جميعا مجلس وعظ، فسر فيه الإمام (سورة قريش)؛ ليبُث في نفوس الحاضرين الإيمان؛ الذي لا تشوبه شائبة، ولايمسه زيغ بألوهية الله ووحدانيته؛ قال: «هذه قريش كانت في سعي؛ لا يُثنيها عنه شيء يذكر، ولا يعوقها عائق؛ في رحلة الشتاء والصيف؛ لقد جنى أفرادها من القبيلة من مسخرات الله سبحانه وتعالى؛ سبل الثراء؛ إذن فقد آمنهم سبحانه من خوف؛ بأن أطعمهم من جوع، وفي هذا يقال الشيء الكثير، فمصدر الريبة، والعصيان، واضطراب الحال؛ هو الجوع، فالأمن الغذائي في العصر الراهن؛ من الأمور التي لا تحب الأنظمة الحاكمة أن تتغاضى عنه، فهو وسيلة لاستتباب الأمن، وتحقيق العيش الكريم، ورفاهية الفرد». كان يسترسل في حديثه؛ بأسلوب سليم، وفي مخارج الحروف ضبط ندر مثيله، ويشرح الكلمة لغة، واصطلاحا؛ عند القدماء والمعاصرين، ويبين محلها من الإعراب، ويضع الآية في إطار تاريخ الدعوة، ويُدعم اجتهاده بالمثل الحي؛ الذي يتغلغل في نفوس مريديه، كان يُفقهم في الدين، فمكثْتُ مأخوذا بما أوتي من علم واسع؛ لقد نهل الرجل حقا من علوم القرآن قديمها، وحديثها، وجالت عيناي على صفحة وجهه، وفي إحدى الليالي أدركت بفراستي؛ أنه لا يمت بأية صلة دم بأهالي القرية، وأنه وافد غريب، نشأ في مؤسسات تعليمية عصرية، فهو من الحضر؛ ابن المدينة؛ في نظراته آثار هم دفين، وبقية خوف، وحيطة وحذر.

فمن يكون يا ترى هذا الرجل؟

استسلمت حقا لفضولي الصحافي.

فحلّت ليلة من ليالي ذلك الصيف القائظ، عرفت فيها سر إمام المسجد، كان الوقت بعد صلاة العشاء. لم يكن أول عهدي بلقائه، وإنما كنت أبقى إلى جانب من لا يريد أن يعجل بالانصراف من المسجد، وأروم لقاء الإمام ليشرح لي ما استعصي علي فهمه من أحاديثه ؛ في مجالس ما بعد صلاة المغرب، فلم أتردد وسألته:

– أيام مرت على إقامتي بهذه القرية، وأخذت عنك الكثير مما أوتيت من علم؛ إلا أنني أجهل اسمك بالكامل.

ابتسم؛ لم أعهد ابتسامة كتلك التي ساحت على وجهه، وأراقت عليه خضابا أحمر، وتألقت لحيته الخفيفة الشعر؛ أجزاء منها شيباء؛ قال:

لا أكتمك شيئا؛ أحب الأسماء إلي؛ ما كنّاني به سكان هذه القرية؛ هو عبد الله، ولي اسم آخر؛ تجده في سجل المواليد لا أرغب فيه.

قلت:

– أليس اسما كلف الوالدين كبشا أقرنا، وبسملة نطق بها أبوك لحظة النحر؟

قال:

بلى، وأخاف أن يُذاع سري إذا ذكرته.

قلت:

– لن أخلف ما عاهدتك به؛ أنا يافع، ورغبتي في الصحافة جامحة؛ لا أكتب جميع ما يطرأ علي من أفكار، أو أرسل الكلام هكذا؛ دون أن آخذ في الحسبان؛ شعور المتلقي، وحكمه، فمن الكلام ما لا يُستحب إيذاعه في الناس، والمأثور من الكلام يؤكد: «مقتل الرجل بين فكيه».

نظر طويلا في وجهي، ثم قال:

– أنت صحفي إذن.

قلت:

– نعم؛ وأنت ترى أنني لم أخف شُغلي؛ لأنني لم آت إلى هنا من أجل مهمة صحفية؛ بل لذت بهذا المكان التماسا للراحة.

قال:

– أخاف أن اكتشافك لي سبق حضورك إلى هنا.

قلت:

– لم أكتشفك إلا من خلال دروسك في التفسير والوعظ.

وتحدث قائلا:

– ماذا أقول؟ هل أكون نموذج من جنت عليه كتاباته؟ حدث ذلك في سبعينيات القرن الماضي؛ لم يمض عام على تعييني أستاذا بإحدى المؤسسات التعليمية؛ حتى اقتحم علي ثلاثة رجال حجرتي، وقيدوني بقيد من حديد، ووضعوا عصابة على عيني، وجروني، ثم أدخلوني سيارة، أقلعت صوب مكان لم أقف على موقعه؛ لكثرة ما سافَرتْ في الشوارع المتكاثفة، وفي الأزقة المتشابكة؛ كنت فقط أتصنت للضوضاء، وللجلبة. سألت الذي عن يميني: «ما سبب اعتقالي؟»؛ قال الذي عن يساري: «نحن لا نعرف سببا؛ دُفع إلينا مطبوع يحمل اسمك، ونسبك، ومهنتك، وتاريخ، ومكان ميلادك، ونحن أجراء عمل، حتم علينا تنفيذه بالقانون»؛ قال آخر: «تريث؛ ستعرف السبب بعد قليل. توقفت السيارة، سمعت بابا حديديا يُفتح، ثم تحركت، وغاصت بسرعة خاطفة في سرداب، احتكت صفيحتها السفلى بحاشية ببلاط، فهدهدت أجسادنا، وفُتحت أبوابها؛ ساروا بي بضع خطوات؛ سمعت هدير موج، وصوت طيور النورس، وشممت رائحة أعشاب؛ تحمل ملوحة مياه المحيط؛ قلت في نفسي: «سيكون حتفي غرقا في البحر». أدخلوني قاعة، لم يتردد وقع الأحذية في أرجائها، فأدركت أنها بحجم غرفة مطبخ، أجلسوني على كرسي خشبي، ثم حرروا عيني من ما شُدّ

عليهما، وحاولت النظر في وجوهم، فلم أستطع، فقد غشي ضوء قوي عيني، فلم أر من أجسادهم؛ سوى أطرافهم السفلى، وخيالاتهم؛ هذه كانت تنعكس على الجدران، وتتحرك في تخايل، يزيد من رهبة المكان؛ لم أعرف عددهم، ولم أدر من يدخل الغرفة، ومن يغادرها؛ كان كل شيء فيها مُبهما. قرأ صوت مطبوع هويتي؛ وزاد متهكما: «هل تكون شخصا آخر غير صاحب هذا؟»؛ قلت: «أنا هو»؛ تكلم آخر؛ قائلا: «أولا؛ كتبت مقالات نُشرت في صحف، ومجلات خارج البلاد، يُديرونها أناس لاتهمهم مصلحة وطنك؛ لا من بعيد ولا من قريب؛ استقرأت فيها الواقع، واستنبطت أفكارا، وعرضت نظريات؛ قادتك إلى استنتاجات؛ تَهُد بها أركان نظام دولة، فراجت آراؤك، وكانت لها آذان صاغية. ثانيا؛ زارك رجلان ليلة الخميس؛ من شهر يناير من السنة الماضية؛ ينتميان إلى تنظيم يساري محظور، فقد عثرا على ضالتهما؛ توسما فيك كاتبا؛ يُهيج الناس بأسلوبه الخطابي المتين، فما تقول فيما يُنسب إليك؟»؛ قلت: «إنه القلم؛ يجمح بصاحبه، ولم أعرف يوما ما كبا فيه هذا القلم؛ ينفلت أحيانا على حين غرة مني، فلا أفطن لقول خطِر إلا بعد أن أراجع مقالاتي، وكتبي؛ بعد نشرها مدة طويلة؛ من المعاني من يفهمها إلا من أوتي من المعرفة أعمقها، وبخبايا المجتمع؛ الذي يحيا فيه، وهناك من لا يتعدى في قراءة المقالة، أو نص كتابٍ؛ فقرة، أو فقرتين؛ يُستعصى عليه فهم ما أريد قوله، فيطرحه جانبا، ومادمت فردا من هذا المجتمع، فلي رأي فيما يُخطط له، وما هو قائم؛ أما الرجال الثلاثة فقد عرضوا علي الانضمام إلى جَمعِهم، رفضت، لأن فكري، ومبادئي المستقلة؛ تأبى علي أن أنساق وراء أحد، أو أعمل في إطار اتجاه؛ يُفرض علي فرضا؛ قال صوت: «إذن فأنت مصر منذ البداية على النكران»؛ قلت: «لا كذب فيما تحدثت به إليكم»؛ قال آخر: «أنت مُخاتل ذكي»؛ لم يتفوه أحد منهم بأية كلمة، فساد صمت؛ خمن ما

شئت أيها الصحفي؛ بما قاما به فيما بعد؛ نقلوني إلى مكان آخر؛ حيطانه تنضح ماء، برودته قاسية؛ أرضيته بول وبراز. رأيت سوطا؛ لوح به رجل عُتلّ، التصق في لمح البصر بعظامي، والتف طرفه القاسي بعنقي؛ لم يكن ألما أحسست به؛ نظرت في عيني ذلك الرجل مبهوتا؛ مفزوعا؛ حائرا، وكأني أقول له: «ألهذا تفسير؟ أنا إنسان، وأنت إنسان، فما بال الإنسان يتخلص من آدميته، فيؤلم جسد الإنسان بالسياط؛ ليس عندي ما أقوله، ولم أخطط لفعل فيه ضرر لبني الإنسان، هي مجرد آراء وأفكار، أو إن شئت حبر على ورق»، ولا أضيف إلى كلامي غير هذا: جردوني من جميع ملابسي، وتركوني عاريا كما ولدتني أمي؛ خمِّن أيها الصحفي ما قاموا به بعد ذلك، وما فعلوه بي؛ لقد ضموا أطرافي إلى جذعي؛ مقيدا إلى عصا، فلم أعد أبدو في هئة إنسان، وانهالو على سوءتي؛ ضربا بسوط جلدي مضفور، ثم نقلوني مهدودا؛ غائبا؛ مريضا، في حافلة مُسدلة ستائر نوافذها؛ رأيت زجاجها مصبوغا باللون الأسود؛ كانت سجنا مُتنقلا؛ في رحلة دامت أكثر من عشر ساعات؛ إلى سجن معزول في برية؛ شتاؤها قساوة لا تحتمل، كما في صيفها قيظ؛ يحول بينك، وبين إغفاءاتك. بعد عام جاءني سجان وقال لي: «أن يراودك أمل في الخروج، فهذه سذاجة، أو حسن نية طُبعت عليها». بعد أربع سنوات أتوني بخبر وفاة والدي، فبكيت؛ ولأول مرة أفطن لمصاب اسمه الموت، وانكفأت في سجني؛ حزينا؛ كئيبا؛ في حلقي غصة؛ يخنقني الندم، ووجدتني فجأة أبحث عن شيء أجد فيه عزائي، وتنفيسا عن كربي، فصب جاري في أذني آية من القرآن الكريم، فاستحضرت الله بنفس هائم؛ عبثا يعثر على سبيل يهتدي به إلى مبتغى، ولم أكن جاهلا، ولكني كنت أتغاضى عن ذكر الله، وفي اعتباري أن الفرائض، والسنن، والاختلاف إلى المساجد؛ نظام يكرس ما هو سائد، فنَظّرت لحركة تثير الهدم لا البناء، وزعزعة اللبنة في قلب البنيان؛ لتنهار

مثيلاتها؛ بالذين أصيبوا بالتبلد والغيبوبة، فكنت كمن هل عليه دين جديد، فاهتدى بعد جهل، وجحود؛ رآني السجان مرة مستغرقا في صلاتي، لم يكن يعهدني على هذا، فقدم إلي نسخة من الكتاب، فملأت علي حياتي سوره، فحفظتها جميعا، وطلبت كتبا في التفسير والحديث، وتاريخ الدعوة، فأمدني بها سجناء؛ اعتقلوا لمبدأ إسلامي عتيد؛ فنهلت من كل ما يمت بصلة بهذا الدين. بعد عامين جاءني خبر وفاة والدتي، فنفضت يدي من ذرة إحساس بمسرات الدنيا. بعد عشرين عاما جاء الفرج؛ علمت أن زوالا قد حدث، فتركوني وشأني، فخرجت من باب السجن الرئيس؛ لم أتجه شمالا؛ حيث المدينة التي شهدت كيف أناخ الزمن على بيت؛ كان يضم بين جنباته والدين وابنا ؛كان فيه آمالهما، وسعادتهما. جلست في ظل شجرة اتقاء أشعة لافحة، وبت ليلتي في نفس المكان، استيقظت في الصباح، وأشعة شمس الشروق تسطع على وجهي، وبثّ نسيم دافئ قادم من الصحراء؛ في جسدي حيوية لم أعهدها؛ جالت عيناي في زرقة السماء، ونظرت بعيدا في خلاء رحب، ولم أفطن ساعتها أنني أنعم بحريتي، وأنني في أحضان الطبيعة، وجاء قراري بأن أسلك طريقا ترِبا؛ يذهب في اتجاه شروق الشمس، فوليت ظهري للغرب، وصلت بعد مسيرة يوم؛ بنهاره، وليله إلى هذه القرية، وكان أول ما ظهر لي من بعيد صومعة هذا المسجد، وكان إمامها آنذاك فقيه رحمه الله، توفي منذ أربع سنوات، قلت له بأني وافد من بعيد، وبدون مأوى، فاستضافني في ذلك اليوم، ومن خلال حديثي معه؛ اكتشف ما يحتمل أن تكون عليه مهمتي في المسجد، فساعدته فى تحضير خطبة يوم الجمعة، ورددت وراءه تكبيرات الصلوات، وقمت بمهمة تحفيظ صبية القرية القرآن، وبهذا عشت على كرم أهل القرية، وكان لي في كل ذلك تقدير؛ لم أعامل به قط».

سألته:

- ألست الوارث فيما تركه الوالدين؟
- لم يملكا من متاع الدنيا شيئا؛ كنا فقراء.
- ألم تتزوج؟

أجاب:

- جاءني الإمام رحمه الله مرات عديدة، وقال لي بأن في القرية أسر ترى ما إذا كنت أرغب في مصاهرتها،لم أرفض كلاما، ولم أمل إليه؛ كنت مُتريثا؛ لا أدري؛ لم أقدم على زواج.

هل كان عبد الله يعرف أنه سيُعتقل مرة ثانية في يوم من الأيام؛ فلم يتزوج؟ سيترك بلا ريب وراءه زوجة زفت إليه عروسا؛ في ليلة كانت حلما؛ منذ أن بلغت سن الحلم، وأجج رغبتها فيه أحاديث من أصبحن أمهات، وجدات في بيوتهن.

وقد اعتقل عبد الله، فما العمل؟ هل أبقى أتأمل حكايته؛ دون أن أقوم بفعل ما؛ يُخلصه من اعتقال قد يطول، ولا يقصر؟ لكنه عمل مخابرات؛ أنى لي باستعطاف عملاء مسخرين؟ هل أكتب مقالا؛ أُلفت به اهتمام منظمات حقوق الإنسان؟ قد أخفق، ولا أنجح.

تناولت فطوري، وارتديت ملابسي، ثم ذهبت إلى كُشك يوجد بشارع المدينة الرئيس، تناولت جريدة وطنية، كان على الصفحة الرئيسية خبر باعتقال عبد الله، وصورة فوتوغرافية له؛ يقول: «ألقى رجال من إدارة الأمن الإقليمي؛ القبض على إمام مسجد بإحدى القرى المتواجدة في الجنوب؛ في إطار البحث الجاري عن منفذي التفجيرات التي هزت مؤخرا العديد من المنشآت العمومية، والخاصة بالمدينة المأهولة»، وقرأت مقالا آخر؛ في جريدة أخرى بقلم أحد الصحفيين؛ الذي استطاع على حد زعمه؛ أن يُميط اللثام عن الأسباب الحقيقية؛ التي دعت جهاز الأمن المركزي؛ بإصدار أمر باعتقال الإمام عبد الله؛ بعد أن أذيع في أول الأمر أنه من أتباع

الجماعة؛ التي خطط تنظيمها السري للهجمات على إحدى الملاهي الليلية بالمدينة، فكتب: «أُعتقل عبد الله إمام المسجد؛ واسمه الحقيقي والمصرح به في سجل المواليد (حسن)، بسبب واحد فقط، وهو أنه مفطور على التمرد والثورة».

هذا ما آلتقطه ذلك الصحفي من غيره، أو دبج مُسوَّغا؛ يُريحه دون أن يُكلف نفسه عناء البحث؛ عن الأسباب الحقيقية، ومثل ذلك ما راج في باقي الصحف. عُدت إلى شقتي، وآستلقيت على الأريكة، ثم استحضرت عبدالله، وراجعت ملامح وجهه، ونبرات صوته، ونظراته، وحركاته، وسكناته، وآنصرافه بخطواته المعتادة، وآندفاعه، وقدومه، وأعدت قراءة حكاية اعتقاله الأول، واستنطاقه، وحبسه في الزنازين، وما بثه من رغبات نفسه، وميله إلى الدعة والطمأنينة؛ فتساءلت أيضا: «أفي وجوده خطر؟ أورواء دروسه الدينية تحريض؟»

ليس في عبدالله هذا ولا ذاك؛ كل ما في الأمر؛ أن في قواعد التسيير المخابراتي احتمالات، وخلق شخصيات من ورق؛ للإحاطة بكل العناصر الفاعلة، في تطور الأحداث، وفهم ما يجري، وما هو مرتقب، وما يُفاجيء؛ إنه فن لا يُؤتى إلا لمن تأمل، وخَبَر؛ إنها عملية استباق، والضرب في المهد.

وكما عاهدت عبدالله؛ فإني لم أكتب مقالا للنشر يتناوله، وانصرفت إلى الخوض في مواضيع أخرى؛ لا تمت بصلة به.

في إحدى مساءات يوم من أيام فصل الخريف؛ من العام الثالث؛ من خبر الاعتقال؛ وأنا أسير على رصيف شاطيء البحر استجماما؛ إذ صادفت عبدالله حرا طليقا؛ كان في مطاردة مازحة لطفل؛ تتعثره ساقاه الضعيفتان، وامرأة يرجُف كبدها للصغير؛ تستكين لدفء علاقة، وسعادة تغمُرها.

ناديت بصوت أقرب إلى همهمة عاطفة؛ فاستجاب عبدالله بأن التفت إلي؛ فرآني؛ فخف في اتجاهي بدون انتظار؛ حياني بحرارة؛ قلت له بفرح:

– ما أسعدنا؛ أنك تنعم بالحرية!

قال:

– اعتقلوني كسابق عهدهم، وطرحوا نفس الأسئلة. قلت لهم: إنكم مصابون بعدوى الروتين؛ فقد مللت تعقبكم لي، وإني ماض في القول؛ هذه المرة بوحي الخالق؛ مُتمذهِبا؛ لا أزيغ عنه؛ مخافة سوء الخاتمة؛ فتنحوا عن طريقي.

كان يتحدث، وهو يوزع اهتمامه بيني وبين الصغير. ابتسمت وخاطبته:

– إنه الشِّبْل؟

قال بغبطة:

– نعم؛ إنه ابني، وتلك زوجتي.

فقلت مرة أخرى:

– ما أسعدنا؛ فلستَ وحيدا؛ فلك أسرة وأنت الراعي.

ثم استطردت سائلا:

– والمصالحة؟

قال مُستفسرا:

– فيما صالحوا من معتقلي السياسة السابقين؟

قلت:

– نعم .

قال:

– إنه المبدأ يا أخي يأبى، كما أنني امتهنت التعليم بإحدى المؤسسات الحرة؛ ما أتقاضاه بعرق الجبين يُغنيني.

قلت له:

– طوبى لك؛ إني أغبطك.

قال:

– إنك حافظ للعهد؟

قلت:

– لا أحيد عنه؛ لم أكتب عنك شيئا، ولو استيحاء. إذا لم تنشر سيرتك بقلمك؛ فلن يعرفها أحد.

قال:

– إنها طي أرشيف أجهزة الأمن.

قلت:

– سيأتي زمان؛ فتنبش أيدي الباحثين عن الحقيقة، وفيما حُفظ؛ فيُبعث المقبورون.

قال:

– ذلك لا مفر منه.

قلت:

– أستودعك الله؛ فلك أهل ينتظرونك.

قال:

– لا تنسى؛ فبيتي في طريقك.

قلت:

– فنتزاور.

ولحق هو بابنه وزوجته، وسرت أنا في طريقي؛ مُفعما بأحاسيس كثيرة؛ أتأمل، وأعجب، وأتعظ.

ديوان شعر

دس يده اليمنى في جيب سرواله؛ بينما ترك اليسرى تتدلى على جانبه، وتميل في حركة تكرارية؛ لا تعرف الاستقرار، أو التوقف؛ رافعا رأسه إلى الأمام في أنف؛ ينظر يمنة ويسرة؛ يتسلى بمنظر الأشياء المعروضة في الدكاكين المتراصة تحت العمارات؛ على جانبي الشارع الطويل؛ المشحون بضوضاء السيارات والناقلات؛ وهمهمات وهمسات السابلة، وهي رائحة، أو غادية؛ أحذيتها تُحدث وقعا على الرصيف.

يخطو في الشارع الذي كان له عهد به؛ منذ زمن بعيد؛ منذ كان صغير السن؛ حين صاحب أباه ليشتري له أشياء؛ كان في أمس الحاجة إليها؛ لكن ذاك عهد قد مضى؛ أما الآن فإنه في عهده الجديد؛ هناك أشياء؛ يريد هو نفسه أن يقتنيها، ويعود أدراجه إلى البيت.

وضع يده على جيب بذلته، وتحسس ما تحتويه، ثم أعادها مطمئنا، فارتسمت على وجهه بشاشة، وابتسامة؛ تنمان عن سرور، واغتباط، وثقة، وبعد أن سار بعض خطوات؛ نظر إلى ملابسه نظرة كئيبة، ويائسة؛ سروال حال لونه، وتبعثر بعض من خيوطه، وبدت به ثقوب واسعة، وحذاء بال مرت عليه سنون؛ غدا قطعة من جلد يابس؛ جعل رجليه تحسان بوخز الألم، وبذلة؛ وإن تلاشت قطعها، فإنه استطاع أن يجمع شتاتها، ويُخيطها.

تابع خطواته؛ غير مبال بهذه الرثاثة؛ ما دام جيبه يحتضن دريهمات، فكان قد مضى ما يقرب من أربعة شهور؛ استطاع خلالها أن يجمع حصتها في صندوق خشبي؛ صنعه خصيصا لذلك، فحملها، وقد آن الأوان لذلك؛ ليشتري ديوان شعر، لقد صار يتحقق له؛ ما كانت تصبو له نفسه؛ إنه يريد أن يقرأ الشعر كما خطه شاعره كاملا، فلا يكفيه، ولا يُشبع رغبته هذا القدر القليل من الأبيات؛ الذي يجده متناثرا في بعض الصحف، أو المجلات، أو الكتب؛ جامدة؛ لا تنضب بروح شعرية، أو

يسمعها تتكرر على لسان أساتذته في الفصل الدراسي، أو أفواه البعض؛ يرددونها، وقد صاروا بمثابة رواة الشعر؛ قبل مرحلة تدوينه، ويفقد على ألسنتهم الجرس الموسيقي، والوزن معا، فتضيع بذلك قيمته الأدبية.

سيقتني -حتما- هذا الذي يسمونه شعرا، ويقرؤه، ويتذوقه، وقد يحفظه عن ظهر قلب، ولم لا؟ حتى يستقيم له الوزن، فينظم الشعر بدوره، ويعبر عن أحاسيسه، وتجاربه الشعرية، فيتألق شاعرا ذاق الفقر، ونظم الشعر.

خلقت منه هذه الدريهمات شخصية أخرى؛ إنه يذكر حين كان يمر مر العابر؛ على واجهات المكتبات، فيقف يرنو إلى الكتب المعروضة، لأن حالته التي هو عليها لا تسمح له بالدخول، وإن فعل ذلك، سيكون تضييقا على حملة المال؛ يقتحمون المكتبة بخطى حثيثة، وكلمات إفرنجية سريعة النطق؛ تشغل أيديهم الكتب، والملفات، وأوراق التسويد؛ ذلك عهد مضى، أما الآن فإنه في عهد جديد؛ في مرحلة من عمره؛ سيتجاوز كل عتبة مكتبة، ويبحث على راحته عن الديوان الذي يروقه، ويتحمس له؛ لأنه يحمل فلوسا؛ كانت نفسه تُحدّثه، ونبضات قلبه تزداد حدة، وبريق يشع من عينيه؛ جاد في بحثه عن مدخل مكتبة؛ فكره شارد غلى ما لا نهاية؛ إلى حيث يتراءى له كتاب؛ باهت المظهر؛ لم يضم بعد عنوانا، ولا اسم شاعره. بدأ هذا كأنه ينجلي رويدا رويدا؛ حيث فطن بجماعة من الأطفال يتقدمونه؛ ناظرين إليه، وهم في ضحك وقهقهة، ومرح وانشراح. ابتسم، ثم استحالت ابتسامته ضحكا؛ أطفال يمرحون؛ يا الله كم هم يمرحون! إنهم بلا شك يشعرون بسعادة تغمرهم، كما يشعر هو أيضا بذلك؛ ربما شيء آخر جعلهم أكثر استجابة للسعادة.

تابع الأطفال أسْيارَهم؛ ناظرين إليه من حين لآخر، وهم في جو كاد أن يكون استهتارا به؛ شعر كأن شخصا قد مر كالسهم من جانبه؛ كان طفلا؛ أطلق ساقيه كالريح ضاحكا، وتبعه الآخرون يحدون حدوه.

ضحك بدوره؛ لعله قد قام بشيء جعلهم أكثر حيوية، وخفة، وسرورا، وتواروا عن ناظريه. اشرأب عنقه؛ ليتبينهم؛ لأن آخرهم قد انحرف يمينا إلى طريق ضيق، وعاد ينظر في واجهات الحوانيت؛ لعله يعثر على حانوت كتب، وتوقف فجأة عن السير؛ متطلعا إلى الأعلى؛ ليقرأ اسم مكتبة.

تقدم بتريث، وواجه رفوفا كُدِّست بالكتب، وقد امتدت لها أيدي الزبائن مُنقبة؛ مُستطلعة في نَهم. من أين سيبدأ بحثه؛ شأن هؤلاء الذين انكبوا دون أن يُلفتوا نظرا؟ لقد اختلطت الأحجام، وتنوعت أبناط الحروف، وتصميمات الأغلفة. لا شك أن الشعر مُستقل بقسمه؛ ليسأل أحد الأعوان...

- سيدي؛ أين يوجد الرف الذي يضم كتب الشعر؟

نظر إليه الرجل، وجال ببصره في هيئته باستغراب، ثم سرعان ما استدار، وانصرف عنه إلى شأنه.

فبادره قائلا:

- سيدي؛ معذرة؛ إني لا أعمد إلى ازعاجك، لقد طلبت منك أن تدلني إلى...

قاطعه الرجل قائلا:

- أوه! ألا تعرف القراءة؛ ألا ترى هذه اللافتات المعلقة أمام عينيك، وقد كتب فيها ما يوجد في كل رف؟

وأشار بيده؛ بحركة متشنجة؛ إلى إحدى تلك اللافتات.

قال هو بحرج:

- أشكرك سيدي جزيل الشكر.

كيف سيعثر على هذه اللافتة العصية؟ هل يجوب أرجاء المكتبة؟ ليكن هذا، فسار مُتتبعا أثر اللافتات؛ إلى أن لفتت نظره كلمة: (شعر).

قال في نفسه: «هنا إذن يوجد شعر الشعراء... شيء جميل!».

وأردف قائلا: «كيف؟ كل هذا في متناول الجميع!»؛ أخذ مجلدا؛ يضم ما شاء الله أن يضم من القصائد المطولة؛ زوقت دفتيه بزخارف؛ بماء الذهب؛ تساءل: «كم سيكون ثمنه؟». من المستحيل اقتناؤه؛ قد يكون غاليا؛ ليبحث عن آخر أصغر منه، وتناول آخر، وهل تفي دريهماته هذا الأخير؟ لا يظن ذلك؛ حار في أمر هذه الكتب؛ يضع هذا ليتناول آخرا، ويتصفحه، ويضعه ليشد على آخر، وهكذا إلى أن كلت يداه، وسكر برائحة الورق؛ رفع رأسه، وحملق حوله؛ عيون الزبائن ترمقه كأنها سهام مصوبة لتصيب الهدف؛ هل أذنب حتى يرمقونه بهذه الطريقة؟ لكنه غض النظر، وتنقل بعينيه باحثا عن الذي سيأخذ مقابل ديوان الشعر، فأشير له إلى رجل مكتنز الوجه؛ ضخم الشارب؛ عيناه جادتان؛ عليهما نظارتان طبيتان؛ سميكتا العدستين؛ مندفع البطن؛ يجلس إلى مكتب مملوء بالأوراق، والأقلام، ووضعت إلى جانب منه آلة كاتبة، وأخرى حاسبة. خطا في اتجاهه، ووقف متأهبا؛ حاملا الكتاب، وقال:

- كم ثمن هذا الكتاب؟

- أي كتاب؛ أريني؛ آه؛ ديوان شعر... ثمنه مائة درهم.

مائة درهم! كم لديه بالضبط؟ أدخل يده في الجيب، وطفق يبحث عن الدريهمات، لكنه لم يجد ولو قطعة منها؛ هل يكون قد نقلها إلى جيب آخر؛ دون أن يشعر بذلك؟ ليبحث عنها؛ لكن لا شيئا كذلك؛ جحظت عيناه، واضطربت حركاته، واحمرت وجنتاه، وصار العرق يتصبب من جبينه، ويداه تتنقلان من جيب إلى آخر؛ فاغرا فاهه؛ مبهورا... قال سائلا نفسه: «يا خيبتي؛ ما العمل؟».

سمع صوت القابض:

- ناولني يا هذا بسرعة؛ إن هناك من يتنظر دوره.

- أعتذر سيدي؛ لقد كانت الدراهم في هذا الجيب؛ أليس كذلك؟

ضحك صراف المكتبة ضحكا خفيفا، وقال بسخرية:

- بلى؛ فلن يكون إلا أحد الجن هو سارقها.

واستطرد غاضبا:

- ابتعد يا هذا؛ ابتعد وابحث كيفما تشاء.

في هذه الأثناء؛ تبادر إلى ذهنه ذلك الطفل الذي جرى؛ إنه بلا شك هو سارقها؛ صك أسنانه؛ بعضها على بعض من الغيظ؛ وعض على شفته السفلى، وقال:

- أيها الخبيث؛ أيها المعتوه؛ نحس يا ابن أبويه، لو وقعت بين يدي لعاقبتك على فعلتك الدنيئة هذه، ولأسرفت في لطم وجنتيك حتى تدميان؛ سخرية؛ حماقة.

ينظر الجميع إليه؛ كأنه كائن غريب. خطا خارجا من المكتبة؛ مُرهقا بالحرج والخيبة؛ وصلت إلى أذنيه همسات، وكلمات مستنكرة تتالى؛ اقشعر لها بدنه، ثم أسلم قدميه للرصيف، وانتحى حائطا؛ استند عليه؛ ليسترجع أنفاسه، ويزيل عرقه بطرف بدلته؛ مُتفكرا بحزن في الزمن الذي أودعه في هذا العيش؛ يصب جام غضبه على هوسه بالشعر والشعراء.

في الخيال عِشق

بعد أن سكن الليل، وتمددت أجساد جميع من في البيت؛ في مضاجعها المعهودة؛ تغط في نوم عميق؛ قلت بيني وبيت نفسي: لماذا لا أكتب في العشق؛ في العيون الواسعة الكحيلة؛ عندما تشزر تصير سهاما؛ في يد رام؛ تطعن بسنانها القلوب العطشى، فتدميها؛ في الشفاه الدقيقة الحمراء؛ كورود متفتحة؛ في الرموش الخفيفة الطويلة، في الوجوه الوضاءة الصافية؛ كالحليب...؟

في العشق الذي هو سبيل إلى كل هذا...

فكتبت من خيالي هذا النص بضمير المخاطب:

«كنتُ أسير دون أدنى التفاتة مني في شارع المدينة الطويل والواسع؛ تستعجلني كالعادة مشاغلي اليومية؛ كُنْتِ أنتِ قادمة؛ بخطوات ثابتة؛ من الاتجاه المعاكس، فاستوقفتني فجأة عيناكِ...

لا أدري هل تعمدت صفعي بنظراتك الحادة والسريعة، أن أن ظني بك ذهب بعيدا؟

لا أنكرك شيئا؛ لقد انتابني خوف الرذيلة؛ بالرغم من ذلك ظللت مشدودا إليك؛ أروم السير بجانبك؛ أشم بضُعف عطرك (الباريزي) النفّاذ؛ يُذهب عن النفوس ضيقها؛ تبرمها، وسأمها من عناءات الحياة؛ فطنت بك الرغبة، وزاد الاحساس بوجودك الملح.

لا شك أنك تعمدت ذلك أيتها الفاتنة اللعوب؛ لما عدت أدراجي، ونفضت رأسي من مشاريعي المستقبلية، ويدي من حاجات بيتي، وتعقبتك؛ لا أشعر بتعب الطريق، وأنت تبتسمين برحمة؛ ترثين لحالي معكِ.

انتابني روع لأنه محظور علي أن أطاردك، وأنت تتمشين بانتشاء، وفخر، وكبرياء؛ تحملين جمالك الأخاذ؛ بدون حرج؛ كأنك تخاطبين القوم؛ تُشعرينهم؛ تُشهدينهم على تحرشي بك.

لا أنكرك شيئا؛ رأيت فيهما -أي عيناك- ثورة على الحياء، وفي التفاتتك الحانية الخجولة تمردا على الوقار، وفي لباسك الشفاف نبذا للحشمة. آمل أن تقرئي مصائر النساء في قصة الإسراء والمعراج؛ أيتها الثائرة؛ المتمردة؛ النابذة!

فخفت منك، وتخيلت أشياء كثيرة؛ تُلازمك كظلك، وريح اندفاعك؛ تخيلت يدي وهي تبطش بلمسة سابقة لآوانها؛ قد تُغضبك، فتخاصمينني، ومالي الذي كسبته بعرق جبيني يذهب هدرا؛ أصبه لك تحت قدميك بلا مبالات، فاستعذت بخالقي من شيطاننا؛ الذي لم يتورع منذ أن ألح في إبايته، واستكفاره؛ في الإيقاع بي وبك، فتركنا الجنة، ولولا وسوسة الشيطان؛ لما زيّنت لي الفعل، ولما رحلنا عن الجنة إلى غير رجعة؛ سأصلى سعيرا، فالجحيم يغلفك من قمة رأسك إلى أخمص قدميك؛ يلفح بلهيبه الخاطئين، فأخليت سبيلك.

واكتفيت ببكاء قلبي على الفراق الأبدي، وقلت سأنمذج شخصي للمحبين؛ سأحيا قصة حب عذري؛ سانخرط في مغامرة البحث عنكِ بلا جدوى في جميع الأمكنة، وبشتى الوسائل؛ في أرشيفات سجلات الحالة المدنية، وأعقد صحبة مع الحاسوب؛ أحاوره؛ أستنطقه؛ أسأله عن اسمكِ بالكامل، وعنوانكِ، وفي أي جهة من قريتنا العالمية تقطنين.

ونزحف بي السنون، فتراودني الذكرى؛ فأتساءل: هل أنتِ من الأحياء؛ ما زلت تسرقين من الحياة أوقاتا سعيدة؟ أم أنت من الأموات، فتكونين قد قبَرك الردى، فعظامك رميم؟

نِقمة

يخطو باتئاد؛ وسط ذلك الحشد من المارة؛ جمهرة يكتظ بها الممر الطويل؛ يغدو مع الغادين، ويروح مع الرائحين؛ ينظر يمنة ويسرة؛ يتفرس وجوه الملأ؛ يرنو إلى بوابة مسجد عريق؛ يُذكر العابرين بالعهود الماضية؛ زمانها كان القوم يقصدونه إيمانا واحتسابا؛ يرتقي درجاته الخارجية متسول أعمى؛ يتلو آيات بينات من الكتاب.

سار وهو يحملق بملء ناظريه في معروضات الدكاكين المتراصة؛ على جانبي الطوار؛ يرفع بصره فجأة إلى واجهة بناية يميزها الشكل الهندسي؛ عن باقي الأبنية الأخرى، فيعجب لهيئته كل العجب؛ ينتشله أحد الفضوليين من بين المارة؛ من حيرته المتدفقة؛ قائلا:

– إنها المقر الأول للبريد الذي أنشأه الفرنسيون؛ عندما ولجوا هذه الأرض الطيبة.

ازداد اهتمامه بتلك البناية، وراح يجول في جداره، ويتأمل نوافذه، وأبوابه الخشبية؛ المطلية بالصباغات ذات اللون الأخضر الفاتح؛ يتذكر هو أيضا ما قرأه في كتب التاريخ؛ بأن هذا الزقاق الذي تطأه الآن قدماه؛ شهد مرور عسكر فرنسا؛ يوم دخلوا مدينة الرباط القديمة؛ عبر باب (الأحد)، ولفظهم بعد حين من الوقت من الباب الآخر؛ باب (البحر)؛ ذلك الزقاق الذي أفضى بهم إلى شط نهر (أبي رقراق).

في غمرة الحنين إلى الماضي؛ يشم رائحة الطين المبلل برطوبة الجو؛ الذي يشد حجارة الحيطان العتيقة، وهي توشك أن تنهار؛ بين لحظة وأخرى، فتصير تربة تدكها أقدام الأجيال المتمردة؛ على التقاليد والأعراف، والتراث الموروث عن العصور السالفة الزاهية؛ بعد أن كانت عصرا يشهد على أنفة، وغيرة، وكبرياء، وهوية هذه الأمة؛ التي غُلِبت على أمرها؛ في مرحلة من مراحل تاريخها الحديث. تسربت إلى خياشيم أنفه المتلهف نسمة عطر

نسائي؛ لا عهد له بذلك العطر؛ حملته هبة ريح غربية لا شرقية؛ من مكان ما؛ من هذا الحضر البالغ القِدم؛ يوقض النفوس الناعسة، ويُروح عنها كدرها، وتجهمها، ويسُلُّها من وطاة هموم الماضي، ومآسي الحاضر، ويحلق بها في فضاء النشوة العارمة، فمضى يقتفي الأثر، يستحث الخطى في ذلك الاتجاه المجهول؛ لا يخاف تعثرا؛ ينتقل من زقاق إلى زقاق، ومن درب إلى درب، وقد تعددت الأزقة والدروب؛ يبحث عن ذات العطر السحري.

وهي ما تلبث أن تُغادر هذه الأمكنة الضيقة الظليلة؛ التي لا يمسها ضوء الشمس، وقد مرت، فرمقتها عيناه الزائغتان، وهي تجتاز باب المدينة العتيقة الشرقي؛ أسوارها العتيدة؛ الضاربة في القدم؛ فمشى في أعقابها، وكتفاه وساعداه في صدام عنيف مع المارة؛ ما يفتأون يُشبعونه سبّا، وشتما، واستخفافا، وهو يروم الالتباط بها؛ يسترق إليها النظر؛ تُميط خطواتُها الضيقة، والمتريثة أطراف ثوبها ذات الألوان الزاهية، والحواشي، والأهداب الشفافة؛ عن ثنية فخذها الممتلئة، وعن ساقها الطويل؛ ذو البريق الجذاب. يحملق في خاصرتها، وهي تميل بها جهة اليمين، وجهة اليسار؛ تتهادى في مشيتها؛ كما يتهادى القارب في إبحاره على صفحة ماء البحر؛ التصق الثوب الزمردي بجسدها التصاقا؛ يسْتَبين من خلاله قدّ رشيق، ومليح،؛ تهز رأسها هزة تسقط على إثرها خُصلات شعرها الأشقر الذهبي؛ تعكس تموجاته شعاع الشمس الساطع؛ تُداعب الحركة الخفيفة للريح تلك الخصلات، فيظهر خداها المتوردان؛ ترمقها العيون مشدوهة؛ مبهورة؛ من كل اتجاه، فتصل أذنيه كلمات الثناء، والمجاملة، والإطراء، والتغزل، وألفاظ التسيب.

تمشي في طريق الحب المباح؛ تسرق رغبته العارمة بعينيها الواسعتين؛ ذات البؤبؤتين العسليتين؛ تصدران ومضات بريق ترعد قلبه المريض، فتشقه شقا، وتُزلزل كيانه؛ تحرك من شهوته البهيمية؛ المدفونة في غياهب النسيان؛ رغبته

المكبوتة في أعماق ذاته؛ المقيدة بأصفاد المحظور، وأغلال الاحساس بالآثام، والذنوب.

تشده من عضده؛ تركن إلى ضلعه الأيمن؛ مبعث حواء، فيسير إلى جنبها، وقد ثملته رائحتُها، فتزداد دقات قلبه؛ تسري ذبذباتها في جميع جسده؛ يُحس وكأنه أضحى كتلة لحم بدون هامة، ولا أطرافا؛ تتدحرج؛ تنحدر في منحدر لا نهاية له؛ لا يكبحها كابح، ولا يشد شكيمتها فارس عتل؛ مغوار؛ تستميله إلى كهوف الليل؛ تسقيه كؤوس النبيذ المعتق، فتُعد على مرأى من عينيه الغائبتين القنينات؛ التي عب محتواها؛ في ضحكة خفيفة، وبحركات إيحائية تتدفق بها أنوثتها الاستمالية؛ تلعب الخمرة بعقله، ومروءته؛ تراقصه، والموسيقى تصدح في أعماقه؛ تسبح به في عالم السعادة المثلى؛ تضمه بحرارة وأنين، ثم تهمس في أذنه:

- دونك شفتاي، فهما لك.

فيمضي في تبليل شفتيه اليابستين بلُعابها؛ برحيقها المنعش؛ بترياق المحروم؛ بإكسير الحب والحياة؛ بسمها القاتل...

تداعب شاربه الكث؛ بلمسات من أصابعها الناعمتين؛ اللينتين، وتعاوده الضم، والهمس، واللمس؛ تُشبعه ضربات خفيفة على صدره الواسع، ومنكبيه العريضين، ثم تُنحيه عنها، وقد انطلقت قهقهاتها، يتردد صداها في خُلوتهما، ثم قالت، وهي تحاول أن تكتم ضحكاتها المتقطعة، والساخرة:

- إن موضعي الذي أولجت فيه رجولتَك؛ تعدد فيه ماء رجال سلكت مسلكهم، وامتلأ بأدران أمثالك ممن وقعوا في هواي، وسحرت ألبابهم بهجة حياتي، وإن جسمك لتصيبه بعد حين آفة هذا العصر؛ داء هذا الزمان؛ فيروس هذه الأقوام الغربية المندفعة بشراهة نحو الشهوة الشاذة، فيكون مآلك الفناء المحقق؛ أيها الآدمي المتملص من آدميته، وتصبح حينئذ

موضوع القيل في مجالس الثرثرة، والندوات، والمؤتمرات، ويُنشر أنباء على صفحات الجرائد، والمجلات.

ثارت ثائرته، فانتفخت أوداجه، وتصلبت عروقه، وسرى الدم حارا في شرايينه، وقال؛ كاتما أنفاسا ترعد، وتزبد:

– هكذا إذن؛ تكشفين عن فعلتك الشنعاء؛ أيتها الغادرة.

رفع راحة يده عاليا في الجو، ثم هوى بها بكل قوته على خدها؛ حتى اندحرت في مضجعها، وذهبت أصداء اللطمة إلى أبعد من مكانهما، وقال وقد شلت يده:

– غررت بي أيتها الغانية؛ من تكونين؟

قالت:

– حسبت أنك تكتسب فراسة أبناء طينتك من أعراب الفلاة، فتعرف من أكون؛ أنا المدينة أيها الغبي.

قال يسألها، ومفاصله ترتعد:

– أية مدينة أنت؟

قالت:

– أنا الحضارة؛ يا من كنت ساكنا الوَبر.

قال؛ يسألها:

– أية حضارة تنتمين إليها.

أجابت موضحة:

– أنا الحضارة؛ أنا حضارة المدينة، أنا حضارة الشّقر البيض؛ إنسان الغرب؛ بلاد الفلاسفة، والمفكرين، والأدباء المحدثون؛ الذين ثاروا على الدين؛ على الحقيقة؛ على الأخلاق؛ أذكتني فلسفاتهم، ونظرياتهم المادية، فدعوت إلى نبذ ما يقيد العقل؛ إلى استئصال ما يكتُم أنفاس الذات المتعطشة إلى الحرية الوجدانية؛ إلى الحب؛ إلى الجنس؛ أنا التي طويت رداء

الحشمة، والوقار من فوق أجساد نساء هذه الديار، وفكّكت عرى بيوتاتها؛ أنا التي...

لم تستمر في كلامها، واستحالت دماء خديها إلى لون قاتم؛ مريع. حدجها بنظرة الفزع. استحال معظم شعرها إلى شيب، وانسدل، ثم انتفش. أصبح أنفها معقوفا كمنقار عُقاب، وشاخت يداها، وذبل جلدها، وبرزت عروقها، وما هي إلا لحظة حتى اندفعت بجسد عجوز شمطاء، وهبت تغرس مخالبها الناتئة في عنقه، وتطعن بأنيابها كل عضو منه. حاول عبثا أن يكبح اندفاعها، ويصد هجومها الشرس المميت، فظلت حيث هي؛ لا تنصرف عنه؛ حتى تلاشى لحمه؛ وتساقطت آرابه؛ إربا إربا.

في البحر

قصة مترجمة[1]؛ للكاتب الفرنسي (گي دو موباسان؛ Guy de Maupassant)

قرأ النَّاس مؤخرا في الجرائد؛ السطور التالية: «بولون –سور– مير (Boulogne – Sur – Mer)[1]. 22 يناير. أُبرق لنا هذا الخبر: «مصيبة مريعة ألقت على التو؛ الذُّعر مابين سكاننا على الشاطىء، أُبتلي به سابقا؛ منذ سنتين مركب الصيد؛ الذي يقوده الربان (جاڤيل)؛ عندما كان داخلا إلى المرفأ، قذفت به الأمواج إلى الغرب؛ فتحطم على صخور رصيف تكسير الأمواج؛ بالرغم من مجهود سفينة الإنقاذ، والخطوط المرسلة بواسطة بندقية حمل الحبال، غرق أربعة رجال، وبحار صغير السن».

«يستمر الطقس الرديء، يخاف الناس كوارثا أخرى».

من هو هذا الربان (جاڤيل)، هل هو شقيق مبتور الذراع؟

إذا لفَّ الموج الرجل التَّعس، ومات ربما تحت حطام مركبه المحطم إلى أجزاء؛ فهو الذي أفكر فيه، عاش منذ ثمانية عشر سنة فاجعة أخرى مُرعِبة، وبسيطة؛ كما هي دائما كوارث البحر هذه الرهيبة.

كان إذن (جاڤيل) البكر ربان مركب صيد...

مركب صيد بامتياز؛ صلب؛ لا يُخاف به من أية حالة طقس. الجوف مستدير، مُحاط بدون توقف بالأمواج؛ كسدادة من فلين، دائما في سلام؛ دائما مجلود برياح (المانش) القاسية، والمملحة؛ يُقاوم البحر؛ لا يكل. الشراع منفوخ؛ ساحبا بالخاصرة؛ شبكة صيد كبيرة؛ تكشط أعماق المحيط، وتُزيل، وتجني جميع الأحياء البحرية الراقدة على الصخور، والأسماك

[1] مدينة تقع في الشمال الغربي لفرنسا على ساحل Pas de calais؛ الذي يصل بين الشمال و بحر (المانش)، المترجم.

المفلطحة الملتصقة بالرمال، والسلطعون الثقيل؛ بأرجله المعقوفة، والسرطانات البحرية؛ بشوارب طويلة، ومنتصبة.

عندما يكون هواء البحر باردا، وتكون الموجة قصيرة؛ يشرع المركب في الصيد. شبكته مربوطة على طول عصا من خشب؛ مجهزة بحديدة؛ التي تتركها تهبط بواسطة حبلين؛ ينزلقان على لفيفتين على طرفي المركب؛ الذي ينجرف تحت تأثير الريح، والتيار المائي، يسحب معه هذه الآلة؛ التي تُتلف، وتكتسح قاع البحر. كان لدى (جاڤيل) على متن السفينة أخوه الأصغر، وأربعة رجال، وبحار غلام، كان قد خرج من (بولون) بطقس صحو وصاف؛ ليرمي بشبكة الصيد.

والحال أن الرياح اشتدت عما قليل، وحدثت فجأة عاصفة؛ أجبرت مركب الصيد على الهروب، توجه نحو شواطئ انجلترا، لكن البحر الثائر جلد الأجراف البحرية، ووثب في اتجاه اليابسة؛ جعل ولوج المرفأ مُستحيلا. لاذ المركب الصغير بالفرار في عُرض البحر، وعاد إلى شواطئ فرنسا. استمرت العاصفة في جعل أرصفة تكسير الأمواج مُتعذرة العبور، فجميع إمكانيات الدنو من ملاذ النجاة محفوفة بالخطر، والضجة، وزبد البحر.

أبحر مركب الصيد ثانية، يمخر عُباب البحر؛ مُرتجّا؛ مُخضخَضا؛ مُنسابا؛ مصفوعا بكمية كبيرة من الماء، لكنه جسور بالرغم من كل شيء، متأقلم مع هذه الأجواء العاصفة؛ التي تُمسكه أحيانا خمسة أو ستة أيام؛ مُتنقلا بين البلدين المجاورين؛ فرنسا وانجلترا؛ دون أن يستطيع الرسو في كليهما.

ثم هدأت أخيرا العاصفة الهوجاء، ولما كان في عُرض البحر، ولو أن الموجة كانت ما تزال هائجة؛ أمر قائد المركب برمي الشبكة.

مُرِّرت إذن شبكة الصيد على جانب السفينة، رجلان في المقدمة، وآخران في المؤخرة، بدأوا بإدارة الحبال على بعضها؛ على اسطوانات اللفّ؛ التي تشد الشبكة، لمست فجأة القاع، لكن موجة عالية أمالت المركب،

فترنَّح (جاڤيل) الأصغر؛ الذي كان موجودا في المقدمة، والذي كان يوجه هبوط الشبكة، فوُجِدت ذراعه مشدودة؛ مابين الحبل لحظة ارتخائه برجّة، والخشبة التي ينزلق عليها. قام بجُهد يائس؛ مُحاولا باليد الأخرى رفع الحبل، لكن الشبكة انسحبت قبلا؛ والحبل لم يرتخ قط.

الرجل مُتشنج بالألم؛ فنادى، أسرع الجميع، غادر شقيقه مِقبض الدفة، هجموا على الحبل، باذلين الجهد في تخليص العضو؛ الذي سُحِق؛ كان هذا بلا جدوى.

- يجب قطع الحبل؛ قال أحد البحارة.

وسحب من جيبه سكينا عريضا؛ الذي يستطيع بقطعتين إنقاذ ذراع (جاڤيل) الأصغر.

لكن قطع الحبل كان يعني فقدان شبكة الصيد، وهذه الشبكة في ملك (جاڤيل) البكر؛ تساوي مالا؛ الكثير من المال، ألف وخمسمائة فرنك؛

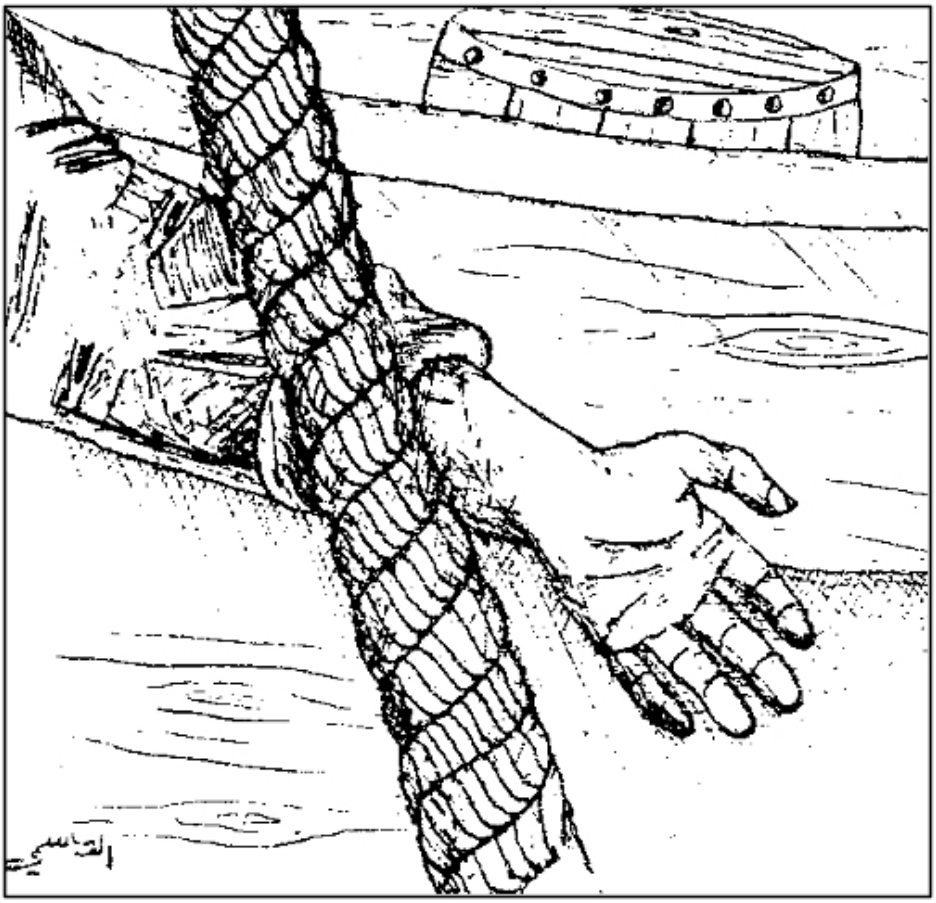

فصاح بقلب مُنكل:
– لا... لا تقطعوا، انتظروا؛ سأقرب المركب من مهب الريح.
وعاد إلى دفة السفينة، وجعل جميع مقبضها إلى الأسفل. لم يستجب المركب إلا بعد لأي، مشلول بهذه الشبكة؛ التي قيّدت حركته، ومجرور من جهة أخرى بقوة الانسياق، والريح.
جثا (جاڤيل) الأصغر على ركبتيه، كزَّ على أسنانه، عيناه زائغتان، لم ينبس ببنت شفة. عاد أخوه مرة أخرى؛ خائفا دائما من سكين أحد البحارة:
– اِنتظروا..اِنتظروا؛ لا تقطعوا؛ يجب إلقاء المرساة.
تم إلقاء المرساة، كُرَّت السلسلة كليا، ثم أُديرت البكرة للتخفيف من ضغط حبال المركب؛ فلانت، أخيرا فُكَّت الذراع الجامدة تحت كُمٍّ مُدمى من الصوف.
بدا (جاڤيل) الأصغر كالأبله، أُنتزِعت منه سُترته، وشوهد شيء فظيع؛ لحم مهروس؛ حيث ينبجس الدم بغزارة؛ كأنه مدفوق بمضخة. نظر الرجل إذن إلى ذراعه، وتمتم:
– أنا سيء الحظ.
ثم؛ لما كون النزيف بحيرة على ظهر السفينة؛ صرخ أحد البحارة:
– سينزف دمه؛ يجب أن يُربط العِرْق.
أخذوا إذن خيطا؛ خيطا غليظا داكن اللون، ومطلي بالقار، وضموا العضو من فوق الجرح، ضغطوا بكل قوتهم؛ توقف تدفق الدم؛ بشكل غير محسوس، وفرغوا بأن انقطع كليا.
اِنتصب (جاڤيل) الأصغر واقفا، يتدلى ذراعه على جانبه، تناوله بيده الأخرى، وأداره، ثم حركه؛ الكل كان مُهشما؛ العظام مكسورة؛ العضلات وحدها تشد هذا الجزء من جسده، نظر إليه مليا؛ بعين كئيبة؛ مُتفكرا؛ ثم

جلس على شراع مطوي، ونصحه زملاؤه بترطيب الجرح؛ بدون توقف لتفادي الإصابة بالتعفن.

وضع سطلا بالقرب منه، ومن دقيقة إلى دقيقة؛ يغترف منه بواسطة كأس، ويُبلل الجرح الفظيع؛ تاركا خويطا من ماء صاف ينساب من فوق.

- ستكون أحسن في الأسفل، قال له أخوه.

هبط؛ لكن بعد ساعة صعد؛ لم يشعر بالطمأنينة في وحدته، ثم إنه فضل الهواء الطلق. جلس مرة ثانية على شراعه، وشرع في تبليل يده.

كان الصيد كثيرا، تمددت بجانبه الأسماك المفلطحة؛ ذات البطون البيضاء؛ مخضوضة بتشنجات الموت؛ كان ينظر إليها؛ دون أن يتوقف عن نضح عضلاته المسحوقة.

لما كان المركب يمضي عائدا مرة ثانية إلى (بولون)، عصفت رياح جديدة، فبدأ عَدْوَه الجنوني؛ واثبا؛ داحرا الأسيف الجريح.

قدِم الليل، وظل الجو جسيما حتى مطلع الفجر. شوهدت من جديد انجلترا مع شروق الشمس؛ لكن، ولما كان البحر أقل إزعاجا؛ أخذ المركب طريق العودة إلى فرنسا؛ متذبذبا.

عند المساء نادى (جاقيل) الأصغر على زملائه، أظهر لهم بقعا سوداء؛ أثر نتانة شنيعة؛ على جزء العضو؛ الذي لا يشد نفسه.

نظر البحارة إلى بعضهم البعض، وأبدوا رأيهم:

- يمكن أن يكون قد أصيب ذراعك بالتعفن. اِعتقد أحدهم.

- بناء على هذا؛ الماء المالح ضروري، صرَّح آخر.

جلبوا إذن الماء المالح، وسكبوه على موضع الألم؛ فصار الجريح أدكنا، صَرَّ أسنانه، تلوى قليلا دون أن يصرخ؛ ثم حين سكنت حُرْقته قال لأخيه:

- اِعطيني سكينا.

مد الأخ الأكبر سكينه.

– أمْسِك لي الذراع إلى أعلى؛ بشكل مستقيم، اِجذب بقوة.
فعل أخوه ما طُلب منه.
بدأ إذن يقطع نفسه؛ يقطع ببطء، وتأمل؛ فاصلا آخر طرف العضلة بهذه الشفرة القاطعة؛ كحد موسى، وسريعا لم يعد الذراع أكثر من بقية عضو مقطوع، تنفس الصعداء، وقال:
– كان هذا ضروريا، كنت هالكا لا محالة.
بدا مرتاحا، وتنفس بقوة، بدأ يسكب الماء على العضو الذي فضل له.
كان الجو ما يزال بعد الليل رديئا، فلم يستطعوا الرسو.
عندما لاح الصباح، تناول (جاڤيل) الأصغر يده المبتورة، وعاينها طويلا، ظهر عليها التعفن، جاء أيضا زملاؤه، وتفحصوها، ومرروها من يد إلى يد، تحسسوها، واشتمُّوها.
قال أخوه:
– يجب أن تقذف هذا في البحر حالا.
لكن (جاڤيل) الأصغر غضب:
– لا..لا..لا أريد إطلاقا؛ هي لي؛ ليس صحيحا؛ ما دامت يدي.
أخذها، ووضعها مابين ساقيه.
قال أخوه:
– ليس أقل من أنها ستنتن.
طرأت إذن على الجريح فكرة؛ لحفظ السمك عندما يمكث الصيادون طويلا في البحر؛ يُكدسونه في براميل من الملح.
تساءل:
– ألا أستطيع أن أجعلها في نقيع من الملح؟
قال الآخرون:
– هذا هو الصحيح.

قرع إذن واحدا من البراميل؛ كان مملوءا من قبل بصيد الأيام الأخيرة، وفي القاع وُضعت اليد، سكب عليها الملح، ثم أعادوا الأسماك الواحدة بعد الأخرى.

أبدع البحارة هذه الدُّعابة:

– شريطة أن نبيعها في المزاد.

وضحك الجميع، ما عدا الأخوين (جاڤيل).

كانت الرياح تهب باستمرار، سار المركب مُتذبذبا ضد الرياح؛ مُتوجها إلى (بولون) حتى الساعة العاشرة من صباح الغد. استمر الجريح في نضح جرحه بالماء؛ بدون توقف.

يقوم من حين لآخر، ويتمشى من طرف المركب إلى الطرف الآخر، أخوه الذي يقبض بالدفة يُشيعه بعينيه هازا رأسه.

انتهت الرحلة بدخول المرسى.

فحص الطبيب الجرح؛ وأعلن أنه في سبيل حسن، جعل عليه ضمادة كاملة، وأوصى بالراحة، لكن (جاڤيل) لم يرد أن ينام؛ بدون أن يسترد ذراعه؛ فرجع أدراجه إلى المرفأ؛ ليجد البرميل الذي كان قد وسمه بعلامة. أفرغوه أمامه، وأخذ مرة أخرى عضوه؛ محفوظا في النقيع من الملح، مُتغضن، رطب، كفّنه في منديل حمله لهذا الغرض، وآوى إلى بيته.

تفحص أبناؤه وزوجته بقايا الأب هذه طويلا، ويجسون الأصابع، وينزعون ذرارة الملح الباقية تحت الأظافر؛ ثم استقدموا نجارا ليصنع تابوتا صغيرا.

في اليوم التالي كان أفراد طاقم مركب الصيد؛ يشيعون دفن اليد المبتورة؛ الأخوان (جاڤيل) جنبا إلى جنب، يتقدمان المأتم. يحمل كاهن الكنيسة الجثة تحت إبطه.

حاد (جافيل) الأصغر عن الإبحار؛ حصل على عمل في المرفأ، فيما بعد؛ عندما كان يتحدث عن حادثته؛ كان يسرد بصوت خافت على مستمعيه:

– كان أخي يسعى إلى مصلحته قبل كل شيء، لو أراد وقتئذ قطع الشَّبكة لكنت احتفظت بذراعي.

تم الكتاب:
في خريف سنة 1446هـ؛ الموافق لـ2024.

الفهرس

مقدمة 5
الشيخ والجراد 7
بيت الأجداد 13
الغواص والسرطان الآلي 19
امرأة من أهل الوبر 23
بائعة (الكلينكس) 27
شجرة الغابة المنقرضة 29
كفن من أعشاب البحر 37
دموع الرجل 43
سارق في المسجد 49
جثة في البحر 51
الغيث 55
صاحب مطعم الطريق 61
لطمة على خد رجل 85
طرائد بشرية 91
هيام في موسم الحصاد 101
المعتقل 109
ديوان شعر 123
في الخيال عشق 129
نقمة 131
في البحر 137